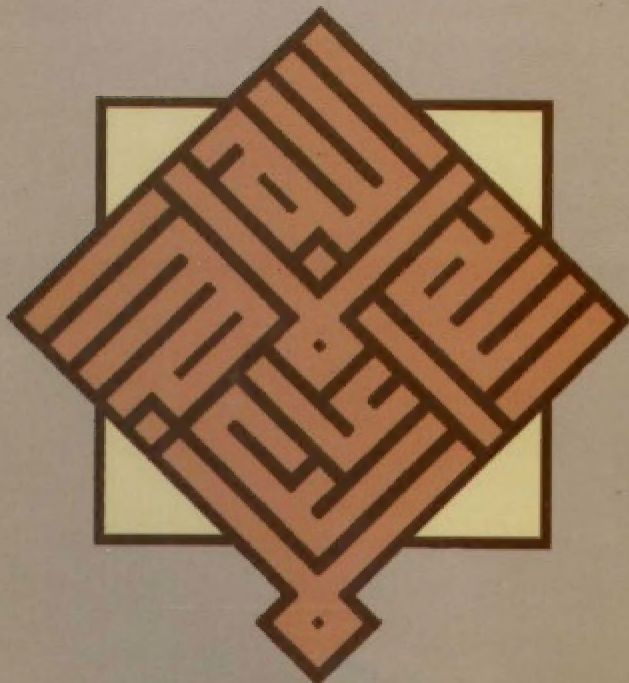


الدكتور عبد الرحمن رأفت الباشا

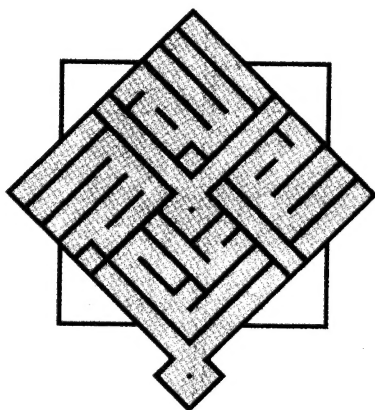


الطريق إلى الألف لمص

لمحات وقطوف



الدكتور عبد الرحمن رأفت الباشا
الطريق إلى الألف لمس
لمحات وقطوف



دار الألف للإعلام
للنشر والتوزيع

جميع الحقوق محفوظة

إن حقوق التأليف والنشر محفوظة لورثة المؤلف فقط دون سواهم، ولا يجوز إعادة صنع هذا الكتاب كلياً أو جزئياً أو تخزينه في أي نظام تخزين المعلومات واسترجاعها، أو نقله على أي هيئة أو بآلة وسيلة، سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية أو استنساخاً أو تسجيلاً، أو الترجمة لأي لغة أخرى، أو تحويله إلى عمل إذاعي أو مرئي، أو غيرهما، إلا بإذن كتابي من أصحاب الحق الشرعي...

ويمكن استخدام الكتاب كوحدة متكاملة وباسم مؤلفه، واسم الناشر كمرجع دراسي. كما يمكن الاقتباس منه وذكره كمرجع. ودار الأدب الإسلامي بعسفتها المخول الوحيد عن ورثة المؤلف بطباعة ونشر وتوزيع كتب الدكتور عبد الرحمن رافت الباشا - رحمه الله - تحذر من التعامل بأي طبعة غير مشروعة.

دار الأدب الإسلامي

للنشر والتوزيع

شركة ذات مسئولية محدودة

ص.ب : ٨١ - بريد بانوراما

١١٨١١ القاهرة - ج.م.ع.

هاتف : ٤٠٢٠٨٦٦

فاكس : ٢٦٦٠١٦٤

الطبعة الأولى

١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م

اعتنى بهذا الكتاب

يمان عبد الرحمن الباشا

الغلاف والخطوط

منير الشعراني

الإعداد الفني والجمع التصويري

بدار الأدب الإسلامي

رقم الإيداع

١٧١٠ / ٢٠٠٠

ISBN

977-5827-05-1

الطريق إلى الأندلس

لمحات وقطوف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حِصْنُ بَابِلْيُونَ

قَالَ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِصَحَابَتِهِ الْكَرَامِ :

(سَتَفْتَحُونَ مِصْرَ، وَهِيَ أَرْضٌ يُسَمَّى فِيهَا الْقَيْرَاطُ^(١)، فَاسْتَوْصُوا بِأَهْلِهَا خَيْرًا، فَإِنَّ لَهُمْ ذِمَّةً وَرَحِمًا).

فَمَا كَانَ مُسْلِمٌ فِي حَيَاةِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَوْ بَعْدَ وَفَاتِهِ ؛ إِلَّا وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ « مِصْرَ » مَفْتُوحَةٌ لَا مَجَالَةَ .
وَإِنَّمَا هُوَ الْأَوَانُ الْمَحْتُومُ فِي يَوْمٍ غَيْرِ مَعْلُومٍ .

* * *

وَفِي مَطْلَعِ سَنَةِ عِشْرِينَ لِلْهِجْرَةِ ...

قَدِمَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَى بِلَادِ الشَّامِ
إِثْرَ فَتْحِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ .

(١) القيراط : معيار في الوزن والقياس .

فَخَلَا بِهِ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ ^(١) فِي قَرْيَةٍ «الْجَابِيَةِ»
الْقَرِيَّةِ مِنْ «دِمَشَقَ» ، وَقَالَ لَهُ :

يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، إِثْنَدُ لِي بِأَنْ أَسِيرَ إِلَى «مِصْرَ» ،
فَإِنَّكَ إِنْ فَتَحْتَهَا ، كَانَتْ قُوَّةً لِلْمُسْلِمِينَ ، وَعَوْنًا لَهُمْ إِلَى
يَوْمِ الدِّينِ .

وَمَا زَالَ بِهِ يُهَوِّنُ عَلَيْهِ فَتَحَهَا ، وَيُعْظِمُ أَمْرَهَا ، حَتَّى
رَكَنَ ^(٢) إِلَيْهِ الْفَارُوقُ ، وَعَقَدَ لَهُ عَلَى أَرْبَعَةِ آلَافٍ مِنْ جُنْدِ
الْمُسْلِمِينَ .

فَمَضَى عَمْرُو بْنُ جُنْدِهِ لَا يَلُوي عَلَى شَيْءٍ ^(٣) .

لَكِنَّهُ لَمْ يَمْضِ عَلَى رَحِيلِهِ إِلَّا قَلِيلٌ حَتَّى دَخَلَ
عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ ^(٤) عَلَى عُمَرَ ، وَقَالَ لَهُ :

(١) عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ : انظره في كتاب « صور من حياة الصحابة » للمؤلف ،
الناشر دار الأدب الإسلامي ، الطبعة المشروعة .

(٢) رَكَنَ إِلَيْهِ : ارتاح إليه واطمئن .

(٣) لَا يَلُوي عَلَى شَيْءٍ : لَا يَقِفُ عَنْ شَيْءٍ وَلَا يَنْتَظِرُ .

(٤) عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ : انظره في كتاب « صور من حياة الصحابة » للمؤلف ،
الناشر دار الأدب الإسلامي ، الطبعة المشروعة .

يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِنَّ عَمْرَأَ لِمَقْدَامٍ ^(١) جَرِيءٌ ...

وَلِإِنَّ فِيهِ حُبًّا لِلْإِمَارَةِ ...

فَأُخْشِيَ أَنْ يَكُونَ قَدْ خَرَجَ إِلَى «مِصْرَ» فِي غَيْرِ
عُدَّةٍ وَلَا عَدَدٍ، فَيَعْرِضَ الْمُسْلِمِينَ لِلْهَلَكَةِ .

فَنَدِمَ الْفَارُوقُ عَلَى إِذْنِهِ لِعَمْرٍو بِفَتْحِ «مِصْرَ» ،
وَبَعَثَ خَلْفَهُ رَسُولًا يَحْمِلُ إِلَيْهِ كِتَابًا مِنْهُ بِهَذَا الشَّأْنِ .

* * *

أَذْرَكَ الرَّسُولُ جَيْشَ الْمُسْلِمِينَ فِي «رَفَحَ» مِنْ
أَرْضِ «فِلَسْطِينَ» ... فَلَمَّا عَلِمَ عَمْرٍو بِقُدُومِ الرَّسُولِ مِنْ
عِنْدِ الْفَارُوقِ ، وَأَنَّهُ يَحْمِلُ إِلَيْهِ كِتَابًا مِنْهُ ، تَوَجَّسَ ^(٢) خِيفَةً
مِنَ الْكِتَابِ الَّذِي مَعَهُ .

فَمَا زَالَ يَتَشَاغَلُ عَنِ اسْتِقْبَالِهِ وَيُعْذُّ ^(٣) السَّيْرَ حَتَّى
بَلَغَ قَرْيَةً مِنْ عَرِيشِ «مِصْرَ» ...

(١) مقْدَام : الكثير الإقدام ، الجريء في الحرب .

(٢) تَوَجَّسَ خِيفَةً : شعر بفزع وخوف .

(٣) يُعْذُّ السَّيْرَ : يسرع فيه .

عِنْدَ ذَلِكَ اسْتَقْبَلَهُ ، وَأَخَذَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ ،
وَفَضَّهٖ^(١) ؛ فَإِذَا فِيهِ :

« إِنَّ أَدْرَكَكَ كِتَابِي هَذَا قَبْلَ أَنْ تَدْخُلَ أَرْضَ
« مِصْرَ » فَارْجِعْ إِلَى مَوْضِعِكَ ...

وإِنْ كُنْتَ دَخَلْتَ أَرْضَهَا فَأَمْضِ لِرُوحِكَ » .
فَدَعَا بِالْمُسْلِمِينَ وَقَرَأَ عَلَيْهِمْ كِتَابَ الْفَارُوقِ ،
وَقَالَ :

أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّنَا فِي أَرْضِ « مِصْرَ » ؟ .
فَقَالُوا : بَلَى .

فَقَالَ : فَلْنَمْضِ عَلَى بَرَكََةِ اللَّهِ وَتَوْفِيقِهِ .

* * *

كَانَتْ « مِصْرُ » يَوْمَئِذٍ خَاضِعَةً لِحُكْمِ « الرُّومِ » ،
وَكَانَ سُكَّانُهَا مِنَ الْأَقْبَاطِ وَهُمْ يَدِينُونَ بِالْمَسِيحِيَّةِ .

لَكِنَّهُمْ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ ذَلِكَ كَانُوا يَضِيقُونَ بِالرُّومِ

(١) فَضَّ الْكِتَابَ : فَتَحَهُ وَقَرَأَ مَا فِيهِ .

ذُرْعاً ، وَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِمْ نَظْرَةَ الْغُرَاةِ الْفَاتِحِينَ ، وَيَلْقَوْنَ مِنْ
سُوءِ مُعَامَلَتِهِمُ الشَّيْءَ الْكَثِيرَ .

* * *

وَمَا إِنْ تَوَعَّلَ^(١) عَمَزُوا قَلِيلاً بِجَيْشِهِ فِي أَرْضِ
« مِصْرَ » حَتَّى خَرَجَ لَهُ « الرُّومُ » بِجَيْشٍ لَجِبٍ^(٢) يَفُوقُ
عُسْكَرَهُ أَضْعَافاً مُضَاعَفَةً ، وَلَا قُوَّةَ عِنْدَ قَرْيَةٍ مِنْ قُرَى
« الْعَرِيشِ » .

وَحَاضَ الْمُسْلِمُونَ مَعَ عَدُوِّهِمْ مَعَارِكَ دَامِيَّةَ : دَفَعَ
فِيهَا « الرُّومُ » إِلَى سَاحَاتِ الْقِتَالِ خَيْرَةَ جُنُودِهِمْ ، وَأَعْظَمَ
آلَةَ حَرْبِهِمْ ...

وَاسْتَبَسَلَ فِيهَا الْمُسْلِمُونَ اسْتِبْسَالاً قَلَمًا شَهِدَ لَهُ
التَّارِيخُ مَثِيلاً .

وَدَامَ الْقِتَالُ شَهْراً كامِلاً ... ثُمَّ انْجَلَى عَنْ نَصْرِ
مُؤَزَّرٍ لِلْمُسْلِمِينَ ، وَهَزِيمَةٍ مُنْكَرَةٍ لِلرُّومِ .

* * *

(٢) اللجب : الكثيف الحجار .

(١) التوغل : البعد والتعمق .

جَمَعَ «الرُّومُ» جُمُوعَهُمْ مِنْ جَدِيدٍ ، وَبَرَزُوا لِعَسْكَرِ
الْمُسْلِمِينَ كَرَّةً أُخْرَى عِنْدَ «بَلْبِيس» (١).

وَدَارَتْ بَيْنَ الْعَسْكَرَيْنِ حَرْبٌ طَاحِنَةٌ أَبَدَى خِلَالَهَا
«الرُّومُ» مِنْ عِنَادِ الْمُقَاوِمَةِ مَا لَمْ يَخْطُرْ عَلَى بَالٍ ...
وَأُظْهِرَ فِيهَا الْمُسْلِمُونَ مِنْ صُنُوفِ الشُّجَاعَةِ مَا أَذْهَلَ
الْأَعْدَاءَ .

وَدَامَتِ الْمَعَارِكُ دَامِيَّةً حَامِيَّةً شَهْرًا كَامِلًا حَتَّى فَتَحَ
اللَّهُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ وَنَصَرَ .

* * *

ثُمَّ مَضَى عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ فِي طَرِيقِهِ لَا يُقَاوِمُ
إِلَّا قَلِيلًا ... حَتَّى بَلَغَ حِصْنَ «بَابِلْيُونَ» الْوَاقِعَ عَلَى ضِفَّةِ
النَّيْلِ بِالْقُرْبِ مِنْ «الْقَاهِرَةِ» الْيَوْمَ .

كَانَ «الرُّومُ» قَدْ أَحْكَمُوا تَحْصِينَ هَذَا الْحِصْنِ
الْكَبِيرِ ، فَحَفَرُوا حَوْلَهُ خَنْدَقًا عَظِيمًا ، وَبَثُّوا فِي أَفْنَائِهِ
حَسَكَ الْحَدِيدِ ...

(١) بلبيس: إحدى مدن محافظة الشرقية في مصر .

ثُمَّ اغْتَصَمَ بِالْحِصْنِ خَيْرَةُ جُنُودِهِمْ ، وَأَكَابِرُ
رِجَالِهِمْ ، وَعُظَمَاءُ الْقَبِيْطِ وَعَلَى رَأْسِهِمْ « الْمُقَوَّقُسُ »
بِطَرِيقِ « مِصْرَ » وَحَاكَمَهَا .

* * *

حَاصِرَ عَمْرُو بْنِ الْعَاصِ الْحِصْنَ أَمْلَأَ فِي أَنْ يَضِيقَ
حُمَاتُهُ ذُرْعًا بِالْحِصَارِ ؛ فَيَسْتَسْلِمُوا لَهُ ...

غَيْرَ أَنَّ النَّيْلَ مَا لَبِثَ أَنْ فَاضَ فَتَسَفَّ « الرُّومُ »
الشَّدُوْدَ ، وَقَطَعُوا الْجُسُورَ ، فَأَحَاطَ الْمَاءُ بِالْحِصْنِ مِنْ
كُلِّ جَانِبٍ ، وَكَادُوا يَهْلِكُونَ غَرَقًا .

عِنْدَ ذَلِكَ كَتَبَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ
عَمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ أَنْ يُعِينَهُ بِمَدَدٍ مِنْ عِنْدِهِ .

وَوَضَلَ عَمْرُو وَجُنُودُهُ صَابِرِينَ مُصَابِرِينَ ، مُرَابِطِينَ
مُجَالِدِينَ ؛ يَنْتَظِرُونَ أَنْ يَأْتِيَهُمُ الْفَرَجُ .

* * *

ثُمَّ جَاءَ الْعَوْنُ مِنْ لَدُنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ...
فَأَمَدَّ جَيْشَ « مِصْرَ » بِاِثْنَيْ عَشَرَ أَلْفًا كَانَ فِيهِمْ أَرْبَعَةُ

آلَافٍ مُقَاتِلٍ عَلَى كُلِّ أَلْفٍ مِنْهُمْ قَائِدٌ يَقُومُ مَقَامَ أَلْفٍ ،
 هُمْ : الزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ ، وَالْمِقْدَادُ بْنُ الْأَسْوَدِ ، وَعُبَادَةُ بْنُ
 الصَّامِتِ ، وَمَسْلَمَةُ بْنُ مُحَلِّدٍ ، وَقَالَ لِعَمْرِو بْنِ الْعَاصِ :
 اعْلَمْ أَنَّ مَعَكَ اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفًا ... وَلَنْ تُغْلَبَ اثْنَا عَشَرَ
 أَلْفًا مِنْ قَلِيلَةٍ .

* * *

عَلِمَ « الْمُقَوْقِسُ » بِالْمَدَدِ الَّذِي وَصَلَ إِلَى جَيْشِ
 الْمُسْلِمِينَ ... فَأَرْسَلَ إِلَى عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ وَفَدًا مِنْ خَيْرَةِ
 رِجَالِهِ لِيُقَاوِضُوهُ وَيَقُولُوا لَهُ :

إِنَّكُمْ قَدْ وَلَجْتُمْ ^(١) بِلَادَنَا ، وَالْحَحْتُمْ ^(٢) عَلَى
 قِتَالِنَا ، وَطَالَ مُقَامُكُمْ فِي أَرْضِنَا ؛ وَإِنَّمَا أَنْتُمْ غُضْبَةٌ ^(٣)
 يَسِيرَةٌ ...

وَقَدْ أَعَدَّ لَكُمْ « الرُّومُ » مَا لَا قِبَلَ لَكُمْ بِهِ ...
 وَقَدْ أَحَاطَ بِكُمْ النَّيْلُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ...

(١) ولجتم : دخلتم بلادنا .

(٢) الححتم : ازدتم في طلب القتال . (٣) غُضْبَةٌ : جماعة صغيرة .

فَابْعَثُوا إِلَيْنَا بِرِجَالٍ مِنْ عِنْدِكُمْ نَسْمَعُ مِنْهُمْ ، فَلَعَلَّهُ
يَكُونُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ مَا نُحِبُّ وَمَا تُحِبُّونَ .

فَلَمَّا أَتَتْ رُسُلُ « الْمُقَوَّقِسِ » ، حَبَسَهُمْ عَمْرُو عِنْدَهُ
يَوْمَيْنِ وَلَيْلَتَيْنِ ؛ لِيُخَالِطُوا عَسْكَرَهُ وَيَرَوْا حَالَهُمْ .

ثُمَّ رَدَّهُمْ إِلَى « الْمُقَوَّقِسِ » وَقَالَ لَهُمْ :

إِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِلَّا إِحْدَى ثَلَاثَ : إِمَّا أَنْ
تَدْخُلُوا فِي الْإِسْلَامِ فَتَكُونُوا إِخْوَانَنَا ، فَإِنْ أَبَيْتُمْ أُعْطِيتُمْ
الْجِزْيَةَ^(١) عَنْ يَدٍ وَأَنْتُمْ صَاغِرُونَ^(٢) ...

فَإِنْ أَبَيْتُمْ جَاهَدْنَاكُمْ بِالْقِتَالِ وَالصَّبْرِ حَتَّى يَحْكُمَ
اللَّهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ .

* * *

فَلَمَّا عَادَتْ رُسُلُ « الْمُقَوَّقِسِ » سَأَلَهُمْ أَنْ يُحَدِّثُوهُ
بِمَا رَأَوْا فَقَالُوا :

(١) الجزية : مقدار من المال يدفعه أهل الذمة .

(٢) صاغرون : خاضعون لمطالب الفاتحين .

رَأَيْنَا قَوْمًا الْمَوْتُ أَشْهَى إِلَيْهِمْ مِنَ الْحَيَاةِ ،
وَالْتَوَاضَعُ أَحَبُّ إِلَيْهِمْ مِنَ الرَّفْعَةِ ...

جَلُوسُهُمْ عَلَى التُّرَابِ ، وَأَكْلُهُمْ عَلَى الرُّكْبِ ^(١) ...

أَمِيرُهُمْ كَوَاحِدٍ مِنْهُمْ ؛ فَمَا يُعْرِفُ سَيِّدُهُمْ مِنْ
مَسُودِهِمْ ، وَلَا رَفِيعُهُمْ ^(٢) مِنْ وَضِيعِهِمْ ^(٣) ...

إِذَا حَضَرَتِ الصَّلَاةُ لَمْ يَتَخَلَّفْ عَنْهَا أَحَدٌ ، يَغْسِلُونَ
أَطْرَافَهُمْ وَوُجُوهُهُمْ بِالْمَاءِ ...

وَيَخْشَعُونَ لِرَبِّهِمْ فِي الصَّلَاةِ .

فَقَالَ الْمُقَوَّقُسُ :

وَاللَّهِ لَوْ أَنَّ هَؤُلَاءِ اسْتَقْبَلُوا ^(٤) الْجِبَالَ لِأَزَالُوهَا ،
وَلَوْ نَازَلُوا ^(٥) الْجِنَّ لِأَبَادُوهَا .

(١) وأكلهم على الركب : أي يجلسون على الأرض أثناء الأكل .

(٢) رفيعهم : كبيرهم ، وصاحب القدر فيهم .

(٣) وضيعهم : صغير القدر أو المنصب بينهم .

(٤) لو استقبلوا : لو اتجهوا إلى الجبال لأزالوها من مكانها .

(٥) ولو نازلوا الجن : ولو حاربوا الجن .

ثُمَّ بَعَثَ إِلَيْهِمْ أَنْ أَرْسِلُوا إِلَيْنَا رُسُلًا مِنْكُمْ نَقَاوِضَهُمْ
وَنُعَاهِدَهُمْ .

* * *

بَعَثَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ عَشْرَةَ مِنْ رِجَالِهِ أَحَدُهُمْ
عُبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ ، وَكَانَ طَوِيلَ الْقَامَةِ ، عَظِيمَ الْهَامَةِ ،
أَسْوَدَ الْبَشَرَةِ ، هَائِلَ الْمَنْظَرِ ... وَأَمَرَهُ عَلَيْهِمْ .

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى « الْمُقَوْسِ » ...

تَقَدَّمَ إِلَيْهِ عُبَادَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَهَابَهُ أَشَدَّ الْهَيْبَةِ ،
وَخَافَهُ أَعْظَمَ الْخَوْفِ وَقَالَ :

نَحْنُ عَنْنِي هَذَا الْأَسْوَدَ وَقَدَّمُوا غَيْرَهُ يُكَلِّمْنِي .

فَقَالُوا جَمِيعاً :

إِنَّ هَذَا أَمِيرُنَا ، وَقَدْ أَمَرَنَا عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ أَلَّا نَتَقَدَّمَ
عَلَيْهِ ، وَأَلَّا نُخَالِفَ رَأْيَهُ .

فَقَالَ الْمُقَوْسُ لِعُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ :

تَقَدَّم يَا أَسْوَدُ وَكَلَّمَنِي بِرَفْقٍ؛ فَإِنِّي أَهَابُ^(١)
سَوَادَكَ .

فَتَقَدَّم إِلَيْهِ عُبَادَةُ وَقَالَ :

لَقَدْ سَمِعْتُ مَقَالَتَكَ ...

وَأَنَّ فِيمَنْ خَلَفْتُهُمْ مِنْ أَصْحَابِي أَلْفَ رَجُلٍ كُلُّهُمْ
أَشَدُّ مِنِّي قُوَّةً ، وَأَفْظَعُ مَنْظَرًا ...

وَلَوْ رَأَيْتَهُمْ لَكُنْتُ أَزْهَبُ^(٢) لَهُمْ مِنِّي ، وَإِنِّي قَدْ
وَلَيْتُ وَأَذْبَرُ^(٣) شَبَابِي ، وَإِنِّي مَعَ ذَلِكَ - بِحَمْدِ اللَّهِ -
مَا أَهَابُ مِائَةَ رَجُلٍ مِنْ عَدُوِّي ...
ثُمَّ أَتْبَعَ يَقُولُ :

إِنَّا - وَاللَّهِ - مَا خَرَجْنَا إِلَّا ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ عَزَّ
وَجَلَّ ...

(١) أَهَابُ : أَخَافُ وَأَخْشَى .

(٢) أَرْهَبُ : أَخَافُ وَأَخْشَى .

(٣) وَلَيْتُ وَأَذْبَرُ شَبَابِي : كَبُرَتْ سِنِي ، وَوَلَّى شَبَابِي .

وَمَا يُبَالِي أَحَدُنَا أَكَانَ لَهُ قَنَاطِيرُ مِنِّ الدَّهَبِ أَمْ كَانَ لَا يَمْلِكُ دِرْهَمًا ...

وَقَدْ عَاهَدَ^(١) إِلَيْنَا نَبِيُّنَا أَلَّا يَكُونَ طَلِبَةُ^(٢) أَحَدِنَا فِي الدُّنْيَا إِلَّا مَا يَسُدُّ جَوْعَتَهُ ، وَيَشْتُرُ عَوْرَتَهُ ...

لِأَنَّ نَعِيمَ الدُّنْيَا لَيْسَ بِنَعِيمٍ ، وَلِنَّمَا النَّعِيمُ نَعِيمُ الْآخِرَةِ .

فَقَالَ الْمُقَوَّقُسُ :

أَيُّهَا الرَّجُلُ الصَّالِحُ قَدْ سَمِعْتُ مَقَالَتَكَ ... وَلَعَمْرِي مَا بَلَغْتُمْ الَّذِي بَلَغْتُمُوهُ إِلَّا بِمَا ذَكَرْتُمْ ، وَمَا ظَهَرْتُمْ^(٣) عَلَى مَنْ ظَهَرْتُمْ عَلَيْهِمْ إِلَّا لِحُبِّهِمُ الدُّنْيَا وَكُرْهِكُمْ لَهَا ... غَيْرَ أَنَّ «الرُّومَ» قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ مَا لَا يُحْصَى عَدَدُهُ ... وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّكُمْ لَنْ تَقُومُوا عَلَيْهِمْ ؛ لِقِلَّتِكُمْ وَضِيقِ ذَاتِ يَدِكُمْ^(٤) ...

(١) عهد إلينا : أوصانا ، وأخذ علينا عهداً .

(٢) طلبة : الطلب والرغبة .

(٣) ظهرتم : انتصرتم . (٤) ضيق ذات يدكم : فقركم واحتياجكم .

وَنَحْنُ تَطِيبُ أَنْفُسِنَا بِأَنْ نَفْرِضَ لِكُلِّ رَجُلٍ مِنْكُمْ
 دِينَارَيْنِ، وَلِأَمِيرِكُمْ مِائَةَ دِينَارٍ، وَلِخَلِيفَتِكُمْ أَلْفَ دِينَارٍ،
 وَتَنْصَرِفُونَ عَنَّا قَبْلَ أَنْ يُصِيبَكُمْ مَا لَا قِبَلَ لَكُمْ بِهِ .
 فَقَالَ لَهُ عُبَادَةُ :

يَا هَذَا، إِنَّ مَا تُخَوِّفُنَا بِهِ مِنْ كَثْرَةِ « الرُّومِ » لَا يَصُدُّنَا
 عَنْ غَايَاتِنَا ... وَلِئِنَّا لَفَائِزُونَ بِإِحْدَى الْحُسْنَيْنِ ...
 فَإِنْ ظَفِرْنَا بِكُمْ عَظُمْتَ لَنَا غَنِيمَةُ الدُّنْيَا ...
 وَإِنْ ظَفِرْتُمْ بِنَا عَظُمْتَ لَنَا غَنِيمَةُ الْآخِرَةِ ...
 ثُمَّ أَرَدَفَ يَقُولُ :

وَلِإِنَّهُ لَيْسَ فِينَا رَجُلٌ وَاحِدٌ إِلَّا وَهُوَ يَدْعُو اللَّهَ بَعْدَ كُلِّ
 صَلَاةٍ أَنْ يَرْزُقَهُ الشَّهَادَةَ، وَأَلَّا يَرُدَّهُ إِلَى أَهْلِهِ خَائِبًا ...
 وَقَدْ اسْتَوْدَعَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَّا اللَّهَ أَهْلَهُ وَوَلَدَهُ، وَجَعَلَ
 هَمُّهُ حَرْبَ عَدُوِّ اللَّهِ وَعَدُوِّهِ .

ثُمَّ عَرَضَ عُبَادَةُ عَلَى « الْمُقَوْقِسِ » الْإِسْلَامَ،
 أَوِ الْجِزْيَةَ، أَوِ الْقِتَالَ ...

فَأَتَى قَوْمَهُ قَبُولَ الْإِسْلَامِ وَأَنفُوا^(١) مِنْ دَفْعِ الْجِزْيَةِ .

* * *

عَادَ عِبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ إِلَى الْمُسْلِمِينَ وَأَخْبَرَهُمْ بِمَا
كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ « الْمُقَوْسِ » ، وَأَنَّهُ لَا مَنُذُوحَةَ^(٢) مِنْ
اِفْتِحَامِ الْحِصْنِ مَهْمَا كَانَ الثَّمَنُ غَالِيًا .

عِنْدَ ذَلِكَ قَالَ الزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لِعَمْرٍو

ابْنِ الْعَاصِ :

إِنِّي أَهْبُ^(٣) نَفْسِي لِلَّهِ تَعَالَى ، وَأَرْجُو أَنْ يَفْتَحَ اللَّهُ
بِذَلِكَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ .

* * *

وَضَعَ الزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ سُلْماً عَلَى جِدَارٍ مِنْ جُدْرَانِ
الْحِصْنِ وَصَعِدَ فَوْقَهُ ... وَأَمَرَ جُنُودَ الْمُسْلِمِينَ إِذَا
سَمِعُوا تَكْبِيرَهُ أَنْ يُجِيبُوهُ جَمِيعاً بِصَوْتٍ وَاحِدٍ .

وَمَا هِيَ إِلَّا دَقَائِقُ حَتَّى كَانَ الْفَارِسُ الْمَغَوَّارُ^(٤)

(١) أَنفُوا : اسْتَكْبَرُوا .

(٢) لَا مَنُذُوحَةَ : لَا مَفْرَ وَلَا مَهْرَبَ .

(٣) أَهْبُ : أَبْعَثَ نَفْسِي بِيَعِ سَمَاحَ ، وَكَأَنَّهَا صَدَقَةٌ أَتَقَرَّبُ بِهَا إِلَى اللَّهِ .

(٤) الْمَغَوَّارُ : الْكَثِيرُ الْإِغَارَةِ عَلَى الْأَعْدَاءِ .

يَمْتَطِي جِدَارَ الْحِصْنِ ؛ وَهُوَ شَاهِرٌ^(١) سَيْفُهُ بِيَدِهِ ،
وَصَيْحَةُ اللَّهِ أَكْبَرُ تَنْطَلِقُ مُدَوِيَّةٌ مِنْ فَمِهِ ...

فَانْطَلَقَتْ وَرَاءَهُ آلَافُ الْحَنَاجِرِ تُرَدُّدٌ :

اللَّهُ أَكْبَرُ ... اللَّهُ أَكْبَرُ ...

فَزَلْزَلَ دَوِيُّهَا قُلُوبَ أَعْدَاءِ اللَّهِ .

وَأَلْقَى الزُّبَيْرُ بِنَفْسِهِ دَاخِلَ الْحِصْنِ ...

وَتَتَابَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى إِلْقَاءِ أَنْفُسِهِمْ وَرَاءَهُ ،
وَأَعْمَلُوا سُيُوفَهُمْ فِي رِقَابِ « الرُّومِ » الَّذِينَ أَذْهَلَتْهُمْ
الْمُفَاجَأَةُ .

وَعَمِدَ الزُّبَيْرُ وَأَصْحَابُهُ إِلَى بَابِ الْحِصْنِ فَفَتَحُوهُ ،
فَاقْتَحَمَتْهُ جُمُوعُ الْمُسْلِمِينَ ، وَانْقَضُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ
انْقِضَاضَ الصَّاعِقَةِ ...

وَدَارَتْ مَعْرَكَةٌ ضَرُوسٌ ؛ كَتَبَ اللَّهُ فِيهَا لِجُنْدِهِ
النَّصْرَ ، وَضُمَّتْ إِلَى دَوْلَةِ الْقُرَآنِ لُؤْلُؤَةُ الدُّنْيَا مِصْرُ .

(١) شاهر سيفه : أي أخرجه من جرابه وعزم على القتال به .

بِنَاءُ الْقَيْرَوَانِ

كَانَ خُلَفَاءُ الْمُسْلِمِينَ مِنْذُ عَهْدِ ذِي النُّورَيْنِ عُثْمَانَ
ابْنِ عَفَّانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَازِمِينَ عَلَى أَنْ يُلْحِقُوا بِالرُّومِ
هَزِيمَةً سَاحِقَةً عَلَى شَوَاطِيِ الْمَتَوَسِّطِ وَالْأَطْلَسِيِّ فِي
الْمَغْرِبِ كَيْلَكَ الَّتِي أَلْحَقُوهَا بِهِمْ عَلَى ضِفافِ
«الْيَرْمُوكِ»^(١) فِي الْمَشْرِقِ ...

وَأَنْ يَنْتَزِعُوا مِنْهُمْ السِّيَادَةَ عَلَى الْبَحْرِ الْأَبْيَضِ
الْمَتَوَسِّطِ الَّذِي كَانَ يُدْعَى «بِبحْرِ الرُّومِ» ، وَأَنْ يُطْلِقُوا
عَلَيْهِ اسْمًا جَدِيداً هُوَ : بَحْرُ الشَّامِ ...

وَأَنْ يُحَقِّقُوا بِشَارَةَ نَبِيِّهِمُ الْكُبْرَى بِفَتْحِ
«الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ» ...

بَعْدَ أَنْ حَقَّقُوا بِشَارَتَهُ بِفَتْحِ مِصْرَ ...

* * *

(١) اليرموك : أحد روافد نهر الأردن ، ينبع في هضبة من حوران ويجري في
حدود سوريا ، ويصب في الأردن جنوب طبرية .

لَمْ يَزَكِّنِ الْمُسْلِمُونَ فِي ذَلِكَ إِلَى الْأَمَلِ ،
وَالْأَحْلَامِ ، وَالْأَمَانِيِّ ...

وَلِنَّمَا حَقَّقُوهُ بِالتَّخْطِيطِ الْوَاعِي ، وَالْإِعْدَادِ الْجَادِّ ،
وَالْعَمَلِ الدَّائِبِ ^(١) ...

وَكَانَ فِي طَلِيعَةِ مَا فَعَلُوهُ لِهَذِهِ الْغَايَةِ إِنْشَاءُ الْأُسْطُولِ
الْإِسْلَامِيِّ الْعَتِيدِ ...

فَلَمَّا وَجَدُوا أَنَّهُمْ قَدْ أَعَدُّوا لِلْأَمْرِ عُدَّتَهُ ، وَاتَّخَذُوا لَهُ
أَهْبَتَهُ ... أُعْطِيَتْ الْإِشَارَةُ لِلْقَادَةِ بِالتَّحْرُكِ إِلَى الشَّمَالِ
الْإِفْرِيقِيِّ .

فَتَصَدَّى لِفَتْحِ الْمَغْرِبِ وَاسْتِنْقَازِهِ مِنْ أَيْدِي
« الرُّومِ » وَإِذْخَالِهِ فِي دِينِ اللَّهِ قَائِدَانِ كَبِيرَانِ مُظَفَّرَانِ
هُمَا : عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ ، وَمُعَاوِيَةُ بْنُ حُذَيْجٍ ...

* * *

لَكِنَّ عَمَلَ الرَّجُلَيْنِ الْعَظِيمَيْنِ كَانَ بِمِثَابَةِ
الْمُقَدَّمَاتِ لِمَا صَنَعَهُ فَارِسُ الْإِسْلَامِ عُقْبَةُ بْنُ نَافِعٍ ...

(١) الدائب : المتواصل بلا انقطاع .

ذَلِكَ الْفَارِسُ الْكَمِيُّ الَّذِي مَا كَادَ يُتِمُّ الْعَقْدَ الثَّانِي
مِنْ عُمْرِهِ حَتَّى انْضَوَى^(١) تَحْتَ لَوَاءِ عَمْرُو بْنِ الْعَاصِ
مُجَاهِدًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ...

وَمَضَى مَعَهُ فِي جَيْشِهِ الَّذِي فَتَحَ أَرْضَ الْكِتَانَةِ
« مِضْرَ » ، وَضَمَّ إِلَيْهَا « بَرْقَةَ » وَ« طَرَابُلُسَ » ...

وَبِذَلِكَ أُتِيحَ لِعُقْبَةَ بْنِ نَافِعٍ أَنْ يَتَتَلَمَذَ عَلَى يَدَيْ
ذَلِكَ الْقَائِدِ الْعَبْقَرِيِّ الْقُدِّ ، وَأَنْ يُفِيدَ مِنْ خِبْرَتِهِ الْوَاسِعَةِ فِي
الْحُرُوبِ ، وَأَنْ يَنْتَفِعَ مِنْ تَجَارِبِهِ الْغَنِيَّةِ فِي الْإِدَارَةِ
وَالْحُكْمِ .

كَمَا أُتِيحَ لِعَمْرُو بْنِ الْعَاصِ أَنْ يَكْتَشِفَ مَا يَتَحَلَّى بِهِ
عُقْبَةُ مِنْ كَرِيمِ السَّمَائِلِ وَجَلِيلِ الْخَصَائِلِ الَّتِي تُؤَهِّلُهُ
لِلْقِيَادَةِ وَالنُّصْرَةِ .

وَقَدْ عَهِدَ عَمْرُو لِعُقْبَةَ بِوَلَايَةِ « بَرْقَةَ » ...

* * *

(١) انضوى : انطوى وسار في جملة الجيش .

كَانَتْ « بَرَقَةُ » آنَ ذَاكَ بِمَثَابَةِ حَظِّ الدِّفَاعِ الْأَوَّلِ ضِدَّ
هَجَمَاتِ « الرُّومِ » عَلَى جُيُوشِ الْمُسْلِمِينَ الرَّابِضَةِ فِي
« مِصْرَ » ...

فَقَدْ كَانَ « الرُّومُ » يَوْمَئِذٍ مُسْتَقَرِّينَ فِي الشَّمَالِ
الْإِفْرِيقِيِّ الَّذِي نُطْلِقُ عَلَيْهِ الْيَوْمَ اسْمَ « الْمَغْرِبِ الْعَرَبِيِّ » .
وَكَانَتْ أَسَاطِيلُهُمْ ^(١) مُسَيِّطِرَةً عَلَى الْبَحْرِ الْأَبْيَضِ
الْمُتَوَسِّطِ الَّذِي كَانَ يُعْرَفُ « بِبَحْرِ الرُّومِ » .

* * *

وَقَدْ نَهَضَ عُقْبَةُ بْنُ نَافِعٍ بِالْمُهْمَةِ الصَّعْبَةِ الَّتِي أُلْقِيَتْ
عَلَى كَاهِلِيهِ ^(٢) الْفَتِيَّينِ بِكَفَايَةِ فَائِقَةٍ شَهِدَ لَهُ بِهَا خُلَفَاءُ
الْمُسْلِمِينَ وَوَلَّاهُمُ جَمِيعاً .

فَاسْتَبَقُوهُ فِي وَلَايَتِهِ هَذِهِ نَحْواً مِنْ عَشْرِينَ عَاماً ...
تَعَاقَبَ ^(٣) خِلَالَهَا عَلَى الْخِلَافَةِ كُلُّ مِنْ عُمَرَ بْنِ

(١) الأسطول : فرقة من السفن تجوب البحار .

(٢) كاهليه : كتفيه .

(٣) تعاقب : تتابع عليها كل واحد في عقب الآخر ، أي بعده .

الْخَطَّابِ ، وَعُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ ، وَعَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ ،
وَمُعَاوِيَةَ بْنَ أَبِي سُفْيَانَ .

وَقَدْ أَتَاكَ هَذِهِ الْمُدَّةُ الطَّوِيلَةُ لِغُفَّةِ بْنِ نَافِعٍ أَنْ
يَخْتَبِرَ طَبِيعَةَ الْأَرْضِ ، وَأَنْ يَتَعَرَّفَ عَلَى خَصَائِلِ أَهْلِهَا
وَقَبَائِلِهِمْ وَأَذْيَانِهِمْ ...

وَأَنْ يَضَعَ يَدَهُ عَلَى مَوَاطِنِ قُوَّتِهِمْ وَمَكَامِنِ^(١)
ضَعْفِهِمْ ...

وَرَأَى غُفَّةُ أَنَّ مَا مِنْ بَلَدٍ فِي هَذِهِ الدِّيَارِ يَنْزِلُهُ
الْمُسْلِمُونَ إِلَّا وَيَجْتَمِعُ تَحْتَ سَمَائِهِ نَصَارَى قُلُوبُهُمْ مَعَ
« الرُّومِ » ...

وَأَفَارَقَهُ وَثِييُونَ مُوزَّعُونَ الْأَهْوَاءِ ...

وَمُسْلِمُونَ مُجَاهِدُونَ مُرَابِطُونَ .

وَأَيَّقَنَ غُفَّةُ أَنَّ اجْتِمَاعَ هَذِهِ الْأَخْلَاطِ مِنَ النَّاسِ فِي

(١) المكامن : الأماكن التي يستتر فيها ضعفهم .

بَلَدٍ وَاحِدٍ إِذَا كَانَ مُمَكِّنًا فِي أَيَّامِ السَّلَامِ ... فَإِنَّهُ يَغْدُو
مُسْتَحِيلًا فِي أَوْقَاتِ الْحَرْبِ ...

وَالْمُسْلِمُونَ مَا قَدِمُوا إِلَى هَذِهِ الدِّيَارِ لِلرَّاحَةِ
وَالِاسْتِقْرَارِ ...

وَلِئَنَّا وَقَدُوا عَلَيْهَا مُحَارِبِينَ لِنَشْرِ دِينَ اللَّهِ ،
مُجَاهِدِينَ لِإِغْلَاءِ كَلِمَتِهِ فِي الْأَرْضِ ...

وَأَنَّهُ لَيْسَ فِي وُسْعِهِمْ أَنْ يُحَارِبُوا عَدُوَّهُمْ مَا دَامَ لِهَذَا
الْعَدُوِّ بَيْنَ ظَهْرَانِيهِمْ عُيُونٌ وَأَعْوَانٌ ...

لِذَلِكَ فَلَا بُدَّ مِنْ أَنْ تَتَوَافَرَ لِجُيُوشِ الْمُسْلِمِينَ
الْقَاعِدَةُ الصُّلْبَةُ الَّتِي يَسْتَنْدُونَ إِلَيْهَا فِي حَرْبِهِمْ ...

وَالْمُنْطَلَقُ الْحَصِينُ الْأَمِينُ الَّذِي لَا تَتَحَرَّكُ فِيهِ
الْأَرْضَاءُ^(١) وَلَا تَتَلَصَّصُ فِيهِ الْعُيُونُ وَالْآذَانُ .

* * *

(١) الأرصاد: الجواسيس الذين يرصدون الحركات والأحوال ويبلغونها
للأعداء .

لَقَدْ عَقَدَ الْعَزَمَ لِأَنْ يَبْنِي مَدِينَةً تُكُونُ مُسْتَقَرًّا
لِلْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ ، وَمُعَسَّكَراً لِجُنْدِ الْمُسْلِمِينَ ، وَعِزًّا لِلَّهِ
وَرَسُولِهِ أَبَدَ الدَّهْرِ .

وَكَانَ أَوَّلُ شَيْءٍ اخْتَطَّوْهُ فِي الْمَدِينَةِ الْجَدِيدَةِ هُوَ
الْجَامِعُ ...

* * *

لَا يَعْلَمُ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ مَبْلَغَ فَرَحَةِ عُقْبَةَ بْنِ نَافِعٍ حِينَ
رَأَى مَدِينَةَ « الْقَيْرَوَانِ » قَدْ تَمَّتْ بِنَاءً .

وَلَا يَعْلَمُ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ مَا كَانَ يَمَلَأُ صُدُورَ
الْمُسْلِمِينَ مِنْ صَالِحِ النِّيَّاتِ ؛ وَهُمْ يُقِيمُونَ صُرُوحَ ^(١)
الْمَدِينَةِ الْعَتِيدَةِ فِي قَلْبِ الشَّامِ الْإِفْرِيقِيِّ ...

فَهُمْ لَمْ يَبْنُوهَا لِيَمْتَلِكَ كُلُّ مِنْهُمْ دَاراً لِنَفْسِهِ ...

أَوْ يَقْتَنِي عَقَاراً لِأَوْلَادِهِ وَأَهْلِهِ ...

فَمَطَامِحُ الْقَوْمِ أَبْعَدُ مِنَ التَّجَمُّعِ .

(١) الصروح : القصور العالية .

وَعَايَاتُهُمْ أَسْمَى مِنْ عَرْضِ الدُّنْيَا كُلِّهِ ...

وَأَسْوَاقُهُمْ كَانَتْ هُنَاكَ ...

هُنَاكَ فِي جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ .

لَقَدْ بَنَوْهَا لِتَكُونَ عِزًّا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ .

وَقَاعِدَةٌ مَكِينَةٌ لِجُيُوشِ الْمُسْلِمِينَ الْغَازِيَةِ فِي سَبِيلِ

اللَّهِ .

* * *

وَلَقَدْ أَمَضَى الْمُسْلِمُونَ فِي بِنَاءِ « الْقَيْرَوَانِ » خَمْسَ

سَنَوَاتٍ مُتَوَالِيَاتٍ ؛ لَكِنَّ عُقْبَةَ بَنٍ نَافِعٍ لَمْ يُعْمِدِ الشُّيُوفَ

خِلَالَ هَذِهِ الْمُدَّةِ الطَّوِيلَةِ لَحْظَةً وَاحِدَةً .

إِذْ ظَلَّ يُشَاغِلُ « الرُّومَ » عَنِ الْمَدِينَةِ الْجَدِيدَةِ بِغَارَاتِهِ

الْمُتَتَابِعَةِ ...

وَيَحْمِي ظُهُورَ بُنَائِهَا بِغَزَوَاتِهِ الْمُتَوَاصِلَةِ ...

وَيُدْخِلُ النَّاسَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً أَفْوَاجاً ...

فَلَمَّا اكْتَمَلَ الْبِنَاءُ ، وَتَمَّ الْإِسْتِعْدَادُ .

وَعَدَتْ جَمِيعُ السُّبُلِ مَفْتُوحَةً أَمَامَ الْعَزْرِ الْكَبِيرِ
لِتَحْرِيرِ شَوَاطِي الشَّمَالِ الْإِفْرِيقِيِّ كُلِّهَا ، وَانْتِزَاعِهَا مِنْ
قَبْضَةِ « الرُّومِ » .

مَضَى عُقْبَةُ بْنُ نَافِعٍ بِجَيْشِهِ اللَّجَبِ ؛ يَدُكُ الْمَعَاقِلِ
تَلَوُ الْمَعَاقِلِ ...

وَيَهْرُمُ الْجُيُوشَ إِثْرَ الْجُيُوشِ ...

وَيَقُلُّ الْجُمُوعُ بَعْدَ الْجُمُوعِ .

حَتَّى دَانَتْ لَهُ كُبَرَيَاتُ الْمُدُنِ فِيمَا يُعْرَفُ الْيَوْمَ
« بِالْجَزَائِرِ » وَ« الْمَغْرِبِ » .

فَقَدْ أَخْضَعَ « بَاغَايَةَ » ، وَ« تِلْعَمَسَانَ » ، وَ« أَرْبَةَ » ،
وغيرها وغيرها مِنْ عَشَرَاتِ الْمُدُنِ وَالْقُرَى وَالْدَّسَاكِرِ^(١) .

ثُمَّ تَوَجَّهَ إِلَى مَدِينَةِ « تَاهَرْتِ » ...

(١) الدساكر: جمع دسكرة، وهي الأرض المستوية .

وَهُنَاكَ وَجَدَ أَنَّ «الرُّومَ» قَدْ جَمَعُوا لَهُ مِنْ «الْبَرْبَرِ»
 جُمُوعاً عَظِيمَةً ، لَمْ يَلَقِ الْمُسْلِمُونَ لَهَا نَظِيراً مِنْ قَبْلُ ...
 وَدَفَعُوا إِلَى سَاحَةِ الْمَعْرَكَةِ بِكُلِّ مَا يَمْلِكُونَهُ مِنْ
 عَدَدٍ وَعُدَّةٍ ...

وَاسْتَقْدَمُوا لَهَا أَعْظَمَ مَا لَدَيْهِمْ مِنْ قَادَةٍ ...
 وَعَزَمُوا عَلَى أَنْ يُلْحِقُوا بِالْمُسْلِمِينَ هَزِيمَةً سَاحِقَةً
 مَاحِقَةً تَرُدُّهُمْ عَلَى أَعْقَابِهِمْ ، وَتَسْتَخْلِصُ مِنْهُمْ مَا وَقَعَ فِي
 أَيْدِيهِمْ مِنَ الْبِلَادِ وَالْعِبَادِ .

* * *

شَعَرَ عَقْبَتُهُ بِحَرَجِ الْمَوْقِفِ ، وَأَحْسَسَ بِمَا يَغْتَمِلُ فِي
 صُدُورِ جُنُودِهِ مِنْ خَشْيَةِ الْعَدُوِّ وَرَهْبَةِ حُشُودِهِ ...
 وَخَافَ أَنْ يَفُتَّ ذَلِكَ فِي عَضْدِهِمْ ، وَأَنْ يُحْطَمَ
 رُوحُهُمْ .

فَمَا كَانَ مِنْهُ إِلَّا أَنْ وَضَعَهُمْ عَلَى أَبْوَابِ الْمَعْرَكَةِ ،
 وَوَقَّفَ فِيهِمْ خَطِيباً .

وَجَعَلَ الْمُبْلِغِينَ يُنْقِلُونَ كَلَامَهُ إِلَى عَسْكَرِهِ مُبَلِّغًا إِثْرَ
آخَرَ، بِحَيْثُ لَا تَكَادُ تَنْفَصِلُ الْكَلِمَةُ عَنْ شَفَتَيْهِ حَتَّى
تَسْتَقِرَّ فِي آذَانِهِمْ وَقُلُوبِهِمْ جَمِيعًا .

ثُمَّ حَمِدَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ ،
وَصَلَّى عَلَى نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ، وَقَالَ :

أَيُّهَا النَّاسُ : إِنَّ أَسْلَافَكُمْ وَخِيَارَكُمْ مِمَّنْ رَضِيَ اللَّهُ
عَنْهُمْ ، وَأَنْزَلَ بَيْنَهُمْ كِتَابَهُ ، وَبَعَثَ فِيهِمْ نَبِيَّهُ ، قَدْ بَايَعُوا
رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَى أَنْ يَكُونُوا مَعَهُ يَدًا وَاحِدَةً عَلَى مَنْ
كَفَرَ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ .

وَأَنْتُمْ حِينَئِذَا خَرَجْتُمْ إِلَى هَذِهِ الْأَرْضِ إِنَّمَا بَايَعْتُمْ
عَلَى مَا بَايَعَ عَلَيْهِ أَسْلَافُكُمْ ...

أَيُّهَا النَّاسُ : إِنَّكُمْ لَمْ تَغْتَرِبُوا عَنْ دِيَارِكُمْ ، وَلَمْ
تُفَارِقُوا أَهْلَكُمْ وَأَوْلَادَكُمْ إِلَّا طَلَبًا لِمَرْضَاةِ اللَّهِ ، وَلِإِعْزَازِ
لِدِينِهِ ، وَنُصْرَةٍ لِسُرْعِهِ ...

وَحَاشَا لِلَّهِ جَلَّ وَعَزَّ أَنْ يَخْذُلَ مَنْ نَصَرَهُ أَوْ يَتَخَلَّى

عَمَّنْ قَامَ فِي سَبِيلِهِ .

أَيُّهَا النَّاسُ : إِنَّ اللَّهَ جَلَّ وَعَزَّ يَنْظُرُ إِلَيْكُمْ فِي مَكَانِكُمْ
هَذَا ، وَيَعْلَمُ مَا خَرَجْتُمْ مِنْ أَجْلِهِ ...

فَأَيُّقِنُوا بِعَوْنِهِ ، وَاسْتَبَشِرُوا بِنَصْرِهِ .

وَاعْلَمُوا أَنَّهُ كُلَّمَا كَثُرَ الْعَدُوُّ كَانَ الْأَجْرُ لِلْمُؤْمِنِينَ
أَوْفَى وَأَجْزَلَ ، وَكَانَتْ الْهَزِيمَةُ لِلْمُشْرِكِينَ أَخْرَى^(١)
وَأَذَلَّ .

أَيُّهَا النَّاسُ : إِنَّ اللَّهَ جَلَّ وَعَزَّ جَعَلَكُمْ بِأَسَهُ الَّذِي
صَبَّهُ عَلَى أَعْدَائِهِ ، وَاللَّهُ لَا يَرُدُّ بِأَسَهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ .
فَاكْسِرُوا أَعْمَادَ سُيُوفِكُمْ ، وَامْضُوا إِلَى مُقَارَعَةٍ^(٢)
عَدُوَّكُمْ عَلَى بَرَكََةِ اللَّهِ وَعَوْنِهِ ، وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ
وَالصَّبْرِ ...

* * *

الْهَبْتَ كَلِمَاتُ عُقْبَةَ مَشَاعِرِ جُنُودِهِ ، وَأَجْجَبْتَ رُوحَ
الْإِيمَانِ وَحِمِيَّةِ الْإِسْلَامِ فِي صُدُورِهِمْ تَأْجِيجاً .

(١) أَخْرَى : أَكْثَرَ خَرْباً وَذِلّاً . (٢) الْمُقَارَعَةُ : مَنَازِلَةُ الْعَدُوِّ وَجْهًا لَوَجْهٍ .

فَانْطَلَقَتْ حَنَاجِرُهُمْ بِالتَّهْلِيلِ وَالتَّكْبِيرِ ...
وَانْدَفَعُوا إِلَى سَاحَةِ الْقِتَالِ كَمَا تَنْدَفِعُ الْأَسَدُ إِلَى
فَرَائِسِهَا .

ثُمَّ التَقَى الْجَمْعَانِ عَلَى أَرْضِ الْمَعْرَكَةِ ، وَتَصَاوَلَ
الْجَيْشَانِ بِكُلِّ سِلَاحٍ ...

وَلَقَدْ اشْتَدَّ الْأَمْرُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ حَتَّى بَلَغَتْ
الْأَزْوَاحُ مِنْهُمْ الْحَنَاجِرَ ؛ لِكِنَّهُمْ اغْتَصَمُوا بِإِيمَانِهِمْ ،
فَصَبَرُوا وَصَابَرُوا ، وَتَجَلَّدُوا وَجَالَدُوا ...

فَأَخَذَتْ كَفَّتُهُمْ تَرْجُحُ شَيْقًا فَشَيْقًا ...

وَلَمْ تَغِبْ شَمْسُ ذَلِكَ الْيَوْمِ حَتَّى زَلَزَلَ اللَّهُ أَقْدَامَ
عَدُوِّهِمْ ، وَدَبَّ الْوَهْنُ فِي صُفُوفِهِ ، وَجَعَلَ يُؤَلِّي
الْأَذْبَارَ ...

فَرَكِبُوا ظَهْرَهُ ، وَأَعْمَلُوا السَّيْفَ فِي رِقَابِهِ ، وَهَزَمُوهُ
هَزِيمَةً سَاحِقَةً .

* * *

مَضَى عُقْبَةُ بْنُ نَافِعٍ بَعْدَ انْتِصَارِهِ فِي « تَاهَرَتْ »
حَتَّى نَزَلَ عَلَى « طَنْجَةَ » ، فَأَجَمَ ^(١) فِيهَا قَلِيلاً .

ثُمَّ انْطَلَقَ مِنْهَا كَمَا يَنْطَلِقُ الْإِعْصَارُ ، فَجَعَلَتْ مُدُنُ
الْمَغْرِبِ تَتَسَاقَطُ تَحْتَ سَنَابِكِ خَيْلِهِ كَمَا تَتَسَاقَطُ أَوْزَاقُ
الشَّجَرِ فِي فَضْلِ الْخَرِيفِ ؛ حَتَّى بَلَغَ شَوَاطِئَ الْأَطْلَسِيِّ .
وَهُنَاكَ أَقْحَمَ قَوَائِمَ جَوَادِهِ فِي مَاءِ الْبَحْرِ ...

وَطَفِقَ يُقَلِّبُ بَصَرَهُ بَيْنَ جُنُودِهِ الصَّافِينَ وَرَأَاهُ وَيِنَّ
أَمْوَاجِ الْمُحِيطِ وَقَالَ :

اللَّهُمَّ ، إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّي لَمْ أَخْرُجْ بَطَرًا وَلَا أَشْرًا ^(٢) ،
وَلَمْ أَبْغِ ^(٣) - أَنَا وَمَنْ مَعِيَ - غَيْرَ نَشْرِ دِينِكَ وَإِعْلَاءِ
كَلِمَتِكَ ، وَنُصْرَةِ شِرْعَتِكَ ، وَأَنْ تُعْبَدَ فِي هَذِهِ الْأَرْضِ
وَحْدَكَ لَا شَرِيكَ لَكَ .

رَبِّ ، لَقَدْ بَلَغْتُ أَنَا وَمَنْ مَعِيَ الْمَجْهُودَ ^(٤) ...

(١) أجم : استراح .

(٢) بَطَرًا وَلَا أَشْرًا : البطر والأشر معناهما متقاربان ، وهو عدم شكر النعمة .

(٣) لم أبغ : لم أرد . (٤) المجهود : أقصى ما يبلغه الإنسان من تعب ومشقة .

وَلَوْلَا هَذَا الْبَحْرُ لَمْضَيْنَا مُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِكَ .
فَتَقَبَّلْ أَعْمَالَنَا بِخَيْرٍ مَا تَتَقَبَّلُ بِهِ أَعْمَالَ عِبَادِكَ
الصَّالِحِينَ .

ثُمَّ عَادَ أَذْرَاجُهُ قَاصِدًا مَدِينَةَ « الْقَيْرَوَانِ » .

* * *

وَفِيمَا كَانَ فَارِسُ الْإِسْلَامِ عُقْبَةُ بْنُ نَافِعٍ فِي بَعْضِ
طَرِيقِهِ إِلَى « الْقَيْرَوَانِ » ... عَدَلَ يَنْفِرُ قَلِيلٌ مِنْ عَسْكَرِهِ
نَحْوَ بَلَدَةِ « تَهَوْدَةَ » لِيَنْظُرَ فِي أَمْرِهَا .

فَلَمَّا رَأَاهُ « الرُّومُ » وَأَعْوَانُهُمْ فِي قِلَّةٍ مِنْ عَسْكَرِهِ
طَبَعُوا فِيهِ ، وَجَمَعُوا لَهُ ...

وَأَخَذُوا^(١) بِهِ كَمَا يُحْدِقُ الْقَيْدُ بِالْعُنُقِ .

فَتَصَحَّهَ بَعْضُ أَغْوَانِهِ بِالْفِرَارِ فَقَالَ :

لَا وَاللَّهِ ، لَا أَفْعَلُ أَبَدًا ...

لَقَدْ أَتَشَنَّى الشَّهَادَةَ رَاغِبَةً وَلَنْ أَرُدَّهَا خَائِبَةً ...

(١) أَحَدَقُوا بِهِ : أَحَاطُوا بِهِ .

ثُمَّ كَسَرَ هُوَ وَمَنْ مَعَهُ أَجْفَانَ^(١) سُيُوفِهِمْ ، وَخَاضُوا
مَعَ عَدُوِّهِمْ مَعْرَكَةً ضَارِيَةً ...

وَلَكِنَّهَا كَانَتْ مَعْرَكَةً يَائِسَةً مَعْرُوفَةَ الْمَصِيرِ .
فَاسْتُشْهِدَ الْمُسْلِمُونَ جَمِيعاً ، وَكَانَ عَدَدُهُمْ
ثَلَاثِمِائَةَ مُجَاهِدٍ ...

وَكَانَ عَلَى رَأْسِ الشُّهَدَاءِ التَّابِعِيُّ الْجَلِيلُ عُقْبَةُ بْنُ
نَافِعٍ ...

فَارِسُ الْإِسْلَامِ ...

وَبَنِي الْقَيْرَوَانِ ...

وَفَاتِحُ الشَّامِ الْإِفْرِيقِيِّ .

(١) أجفان السيوف : أغمادها ، والغمد هو الجراب الذي يحفظ فيه السيف .

الْمَلِكَةُ الْكَاهِنَةُ

نَحْنُ الْآنَ فِي سَنَةِ خَمْسٍ وَثَمَانِينَ لِلْهِجْرَةِ ، وَعَلَى
سَرِيرِ الْخِلَافَةِ فِي « دِمَشَقَ » عَاهِلُ^(١) بَنِي « أُمَيَّةَ » الْعَظِيمِ
عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ .

وَعَلَى وَلَايَةِ « مِصْرَ » أَخُوهُ عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ مَرْوَانَ
وَالِدُ الْخَلِيفَةِ الزَّاهِدِ الْقَائِدِ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ^(٢) .

وَكَانَتْ أَصْقَاعُ^(٣) الْإِسْلَامِ فِي مَشَارِقِ الْأَرْضِ
تُعْلِي كُلَّ يَوْمٍ رَايَةً مِنْ رَايَاتِ الْعِزَّةِ ، وَالْقُوَّةِ ، وَالنُّصْرِ ...
وَتَتَنَعَّمُ بِالسَّلَامِ وَالطُّمَأْنِينَةِ وَالرَّغْدِ .

لَكِنَّ بِلَادَ الشَّعَالِ الْإِفْرِيقِيَّ الَّتِي تَضُمُّ الْيَوْمَ
« لِيبيَّا » ، وَ« تُونِسَ » وَ« الْجَزَائِرَ » وَ« مَرَّاكشَ » .

(١) العاهل : الحاكم الأعلى في الدولة .

(٢) عمر بن عبد العزيز : انظره في كتاب « صور من حياة التابعين » للمؤلف ،
الناشر دار الأدب الإسلامي .

(٣) أصقاع : جمع صُقع وهي النواحي .

كَانَتْ فِي حَالٍ لَا تَسُرُّ صَدِيقاً وَلَا تُغِيظُ عَدُوّاً .
فَرَفَعَتْ هَذِهِ الْأَقْطَارِ الْأَرْبَعَةَ وَاسِعَةً مُتَرَامِيَةً الْأَطْرَافِ ؛
تَمْتَدُّ مِنْ حُدُودِ « مِصْرَ » شَرْقاً إِلَى شَوَاطِيِ الْأَطْلَسِيِّ
غَرْباً .

وَطَبِيعَتُهَا تَتَوَرَّعُ بَيْنَ صَحَارَى شَاسِعَةٍ تَحْمِيهَا مِنْ
وَطْأَةِ أَقْدَامِ الْفَاتِحِينَ .

وَبَيْنَ جِبَالٍ شَاهِقَةٍ ذَاتِ أَدْعَالٍ ؛ جَعَلَتْهَا أَبْعَدَ مَتَالاً
مِنْ عُقْبَانِ الْجَوِّ .

وَسُكَّانُهَا الْمُسْلِمُونَ كَانَتْ تَسْحَقُهُمْ رَحَى طُحُونٍ
أَحَدُ شِقَاقِهَا « بَرْبَرٌ » قُسَاةٌ عُتَاةٌ ذُووُ بَأْسٍ يَسْتَعْصِمُونَ
بِرُءُوسِ الْجِبَالِ ، وَيَحْتَمُونَ بِالْغَابَاتِ وَالْأَدْعَالِ ...

وَشِقَاقُهَا الْآخَرُ « رُومٌ » مَوْثُورُونَ حَاقِدُونَ عَلَى
الْإِسْلَامِ الَّذِي هَزَمَهُمْ فِي « الْيَوْمُوكِ » ^(١) هَزِيمَةً أَذَلَّتْ

(١) اليرموك : إحدى المعارك الفاصلة في التاريخ وقعت في السنة الخامسة
عشرة للهجرة ، وانتصر فيها المسلمون على الروم نصراً كبيراً .

مَعَاطِسُهُمْ^(١)، وَأَخْرَجَتْهُمْ مِنْ «الشَّامِ، وَفِلَسْطِينَ،
وَمِصْرَ» مَطْرُودِينَ مَذْخُورِينَ إِلَى غَيْرِ رَجْعَةٍ.

* * *

وَكَانَ قَوَادُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ بَعْدِ عُقْبَةَ بْنِ نَافِعٍ رِضْوَانُ
اللَّهِ عَلَيْهِ كُلَّمَا أَخْضَعُوا قَبِيلَةً مِنْ قَبَائِلِ «الْبَرْبَرِ» ثَارَتْ
عَلَيْهِمْ اثْنَتَانِ ...

وَكَلَّمَا رَتَقُوا فَتَقًا^(٢) انْفَتَحَتْ عَلَيْهِمْ فُتُوقٌ .

ثُمَّ زَادَ الطَّيْنَ بَلَّةً ظُهُورُ الْمَلِكَةِ الْكَاهِنَةِ .

وَكَانَتْ هَذِهِ الْكَاهِنَةُ امْرَأَةً شَدِيدَةَ الذِّكَا، عَظِيمَةَ
الدَّهَاءِ، قَوِيَّةَ الْبَأْسِ، مُقَاتِلَةً مِنَ الطَّرَازِ الْأَوَّلِ .

وَقَدْ ظَهَرَتْ فِي جِبَالِ «الْأُورَاسِ» مِنْ أَرْضِ
«الْجَزَائِرِ»، وَبَسَطَتْ نُفُوذَهَا عَلَى الْقَبَائِلِ «الْبَرْبَرِيَّةِ»
الْقَاطِنَةِ هُنَاكَ .

فَهَابَهَا «الرُّومَانُ»، وَأَطَاعَهَا «الْبَرْبَرُ» .

(١) المعاطس: الأنوف، مفردا معطس .

(٢) رتقوا فتقا: سدوا ثغرة أو أصلحوا فساداً .

وَقَدْ تَصَدَّتْ لِقَائِدِ كَبِيرٍ مِنْ قَوَادِ الْمُسْلِمِينَ هُوَ
حَسَّانُ بْنُ النُّعْمَانِ^(١)، فَأَفْسَدَتْ خُطَطُهُ، وَأَوْقَعَتْ الْهَزَائِمَ
بِجُيُوشِهِ، وَأَسَرَّتِ الْعَدِيدَ مِنْ جُنُودِهِ ...

وَقَدْ جَمَعَتْ رِجَالَهَا مِنْ «الْبَزْبَرِ» فَخَطَبَتْ فِيهِمْ
قَائِلَةً :

إِنَّ الْمُسْلِمِينَ إِنَّمَا يَبْتَغُونَ مِنْ بِلَادِنَا الذَّهَبَ
وَالْفِضَّةَ، وَيُرِيدُونَ اخْتِلَالَ الْمُدُنِ ...

وَنَحْنُ لَا نَبْغِي إِلَّا الْمَرَاعِي لِذَوَابِنَا وَالْمَزَارِعَ
لِقَوَاتِنَا .

وَالرَّأْيُ عِنْدِي أَنْ نُخَرَّبَ بِأَيْدِينَا بِلَادَ إِفْرِيقِيَّةَ كُلِّهَا ،
وَأَنْ نَجْعَلَهَا قَاعًا صَفْصَفًا ؛ كَأَنْ لَمْ يَكُنْ فِيهَا أُنَيْسٌ ، وَلَمْ
يَسْمُرْ بِهَا سَامِرٌ مِنْ قَبْلُ .

فَإِذَا رَأَاهَا الْمُسْلِمُونَ كَذَلِكَ يَعْشَوْنَ مِنْهَا ، وَوَلَوْ
مُعْرِضِينَ عَنْهَا ، وَلَمْ يُفَكِّرُوا فِي الرُّجُوعِ إِلَيْهَا أَبَدَ الدَّهْرِ .

(١) حسان بن النعمان : قائد غساني ، توفي بعد سنة ٨٦ هـ - ٧٠٥ م .

فَانْصَاعَ لَهَا أَتْبَاعُهَا، وَجَعَلُوا يُخَرَّبُونَ بُيُوتَهُمْ
بِأَيْدِيهِمْ .

* * *

وَلَقَدْ طَفِقَتْ تَجَمُّعٌ لِلْمُسْلِمِينَ الْعَسْكَرَ تَلُو
الْعَسْكَرِ، وَتُجَنَّدُ لَهُمُ الْكَتَائِبُ بَعْدَ الْكَتَائِبِ، حَتَّى
كَتَبَ حَسَّانُ بْنُ النُّعْمَانِ إِلَى خَلِيفَةِ الْمُسْلِمِينَ عَبْدِ الْمَلِكِ
ابْنِ مَرْوَانَ كِتَابًا جَاءَ فِيهِ :

« إِنَّ أُمَّمَ الْمَغْرِبِ لَيْسَ لَهَا غَايَةٌ، وَلَيْسَ فِي وَسْعِ
أَحَدٍ أَنْ يَقِفَ لَهَا عَلَى نِهَايَةٍ » .

* * *

وَفِي ذَاتِ مَعْرَكَةٍ مِنَ الْمَعَارِكِ الَّتِي خَاضَهَا
الْمُسْلِمُونَ مَعَهَا ؛ انْتَصَرَتْ عَلَى حَسَّانَ بْنِ النُّعْمَانِ نَصْرًا
كَبِيرًا، وَقَتَلَتْ مِنْ جُنُودِ الْمُسْلِمِينَ خَلْقًا كَثِيرًا، وَأَسَرَتْ
ثَمَانِينَ رَجُلًا مِنْ عِلْيَةِ الْقَوْمِ .

فَلَمَّا صَارُوا فِي يَدَيْهَا ... عَظُمَتْ شَأْنُهُمْ،
وَأَحْسَنْتْ مُعَامَلَتَهُمْ، وَأَكْرَمَتْ إِقَامَتَهُمْ ... ثُمَّ أَطْلَقَتْ

سَرَّاحَهُمْ جَمِيعاً مُعَزِّزِينَ مُوقِّرِينَ ... وَاسْتَبَقْتُ وَاحِداً
مِنْهُمْ مِنْ بَنِي « عَبْسٍ » يُقَالُ لَهُ خَالِدُ بْنُ يَزِيدَ .

فَتَبَّئْتُه ، وَضَمَّتْهُ إِلَى أَوْلَادِهَا ، وَبَالَغَتْ فِي إِكْرَامِهِ ،
وَأَعْدَقَتْ ^(١) عَلَيْهِ الْخَيْرَ إِعْدَاقاً ...

وَكَانَ غَرَضُهَا مِنْ ذَلِكَ أَنْ تَسْتَمِيلَ قَلْبَهُ إِلَيْهَا ، وَأَنْ
تَجْعَلَهُ عَيْناً ^(٢) لَهَا عَلَى عَوْرَاتِ الْمُسْلِمِينَ ، وَدَلِيلًا يَدُلُّهَا
عَلَى مَكَامِنِ الضَّعْفِ فِيهِمْ .

* * *

وَلَكِنْ خَالِداً بَدَلاً مِنْ أَنْ يَكُونَ عَيْناً لَهَا عَلَى قَوْمِهِ ،
كَانَ عَيْناً لِقَوْمِهِ عَلَيْهَا .

ذَلِكَ أَنَّ حَسَّانَ بْنَ الثُّعْمَانَ أَرْسَلَ إِلَيْهِ رَسُولاً
مُتَنَكِّراً ، وَقَالَ لَهُ :

اكَتُبْ إِلَيْنَا بِأَخْبَارِ الْكَاهِنَةِ .

فَكَتَبَ إِلَيْهِ خَالِدٌ رُقْعَةً جَاءَ فِيهَا :

(١) أعْدَقَتْ : أَكْثَرَتْ وَأَجَزَلَتْ . (٢) عَيْناً لَهَا : جاسوساً لها .

« إِنَّ الْبَرْبَرَ قَوْمٌ مُتَفَرِّقُونَ لَا نِظَامَ لَهُمْ ، وَلَا رَأْيَ
عِنْدَهُمْ ... »

فَاطُفُوا الْمَرَاحِلَ إِلَيْهِمْ طَيًّا ، وَأَعِيدُوا الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ
بَعْدَ الْكَرَّةِ يَكْتُثِبُ اللَّهُ لَكُمْ النَّصْرَ » .

ثُمَّ وَضَعَ الرَّقْعَةَ فِي جُوفِ قِطْعَةٍ مِنْ خُبْزِ الْمَلَةِ^(١) ،
وَجَعَلَ الْخُبْزَةَ فِي رَحْلِ الرَّسُولِ ، وَأَمَرَهُ بِالْعُودَةِ إِلَى قَائِدِهِ
حَسَّانَ بْنِ النُّعْمَانِ .

* * *

لَمْ يَكِدِ الرَّسُولُ يَبْتَغِدُ عَنْ دِيَارِ الْمَلِكَةِ الْكَاهِنَةِ حَتَّى
شَعَرَتْ بِالْأَمْرِ ... فَخَرَجَتْ نَاشِرَةً شَعْرَهَا ؛ وَهِيَ تُنَادِي
بِالْوَيْلِ وَالْثُبُورِ وَعِظَائِمِ الْأُمُورِ ، وَتَقُولُ :

يَا مَعْشَرَ « الْبَرْبَرَ » ، لَقَدْ ذَهَبَ مُلْكُكُمْ بِذَهَابِ ذَلِكَ
الْعَرَبِيِّ .

فَهَبَّ الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ وَالشُّيُوخُ وَالشَّبَابُ ؛ يَفْتَقُونَ

(١) الْمَلَّةُ : الرَّمْلُ الْحَارُّ يَخْبِزُ عَلَيْهِ .

آثَارُهُ فِي كُلِّ مَكَانٍ ، وَيَسُدُّونَ عَلَيْهِ أَفْوَاهَ الطُّرُقِ مِنْ كُلِّ
جَانِبٍ ... فَلَمْ يَجِدُوا إِلَيْهِ سَبِيلًا .

* * *

وَلَمَّا بَلَغَ الرَّسُولُ مَضَارِبَ جُيُوشِ الْمُسْلِمِينَ دَخَلَ
عَلَى حَسَّانَ بْنِ النُّعْمَانِ ، وَدَفَعَ إِلَيْهِ بِالْخُبْرَةِ ، فَفَتَحَهَا ...
فَوَجَدَ أَنَّ حَرَارَةَ الرِّغِيفِ قَدْ أَفْسَدَتْهَا وَمَحَتْ
مَعَالِمَهَا وَذَهَبَتْ بِحُرُوفِهَا ، فَلَمْ يَفْهَمْ مِنْهَا كَلِمَةً وَاحِدَةً .

* * *

فِي هَذِهِ الْأَثْنَاءِ الَّتِي كَانَ فِيهَا الشَّمَالُ الْإِفْرِيقِيُّ
يَمُورُ^(١) بِالْقَلْقِ وَالْإِضْطِرَابِ ، وَيَقَعُ تَحْتَ مِطْرَقَةٍ
« الرُّومِ » وَسِنْدَانِ « الْبَرْبَرِ » .

وَيُعَانِي فِيهِ الْمُسْلِمُونَ مِنْ انْتِفَاضَاتِ
الْمُعَاهِدِينَ^(٢) ، وَازْتِدَادِ بَعْضِ الْقَبَائِلِ الَّتِي أَسْلَمَ لِسَانُهَا
وَلَمْ يُؤْمِنْ قَلْبُهَا ...

(١) يمور: يهوج ويضطرب .

(٢) المعاهدين: هم غير المسلمين الذين بينهم وبين المسلمين عهد يجب
الوفاء به .

فِي هَذِهِ الْأَنْتَاءِ ، التَّقَى أَمِيرُ « مِصْرَ » عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ
مَرْوَانَ بِأَخِيهِ خَلِيفَةُ الْمُسْلِمِينَ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ ،
وَاسْتَأْذَنَهُ فِي أَنْ يَغْزَلَ حَسَانَ بْنَ الثَّعْمَانِ عَنْ إِمْرَةِ الْجُبُوشِ
الْإِسْلَامِيَّةِ فِي الشَّامِ الْإِفْرِيقِيِّ ، وَأَنْ يُلْقِيَ هَذَا الْعَبْدَ
الثَّقِيلَ عَلَى كَاهِلِ صَدِيقِهِ وَمُشِيرِهِ مُوسَى بْنِ نُصَيْرٍ .

فَلَمْ يَزْتَخِعْ عَبْدُ الْمَلِكِ لِدَلِكِ التَّذْيِيرِ ؛ لِعَظِيمِ ثِقَتِهِ
بِقَائِدِهِ حَسَانَ بْنِ الثَّعْمَانِ ... لَكِنَّ أَمِيرَ « مِصْرَ » أَصَرَ عَلَى
طَلَبِهِ ، وَوَقَفَ عِنْدَهُ وَاسْتَمْسَكَ بِهِ .

فَلَمْ يَلْبَثْ خَلِيفَةُ الْمُسْلِمِينَ أَنْ اسْتَجَابَ لَهُ ، لَا إِثَاراً
لِمُوسَى بْنِ نُصَيْرٍ عَلَى حَسَانَ بْنِ الثَّعْمَانِ ، وَلِنِّمَّا مَرْضَاةً
لِأَخِيهِ .

* * *

مَا كَادَ مُوسَى بْنُ نُصَيْرٍ يَتَلَقَّى أَمْرَ الْخَلِيفَةِ بِتَوَلِّيَّتِهِ
عَلَى الشَّامِ الْإِفْرِيقِيِّ حَتَّى وَجَّهَ وَجْهَهُ شَطْرَ (١)
« الْقَيْرَوَانِ » قَاعِدَةِ الْمُسْلِمِينَ الْعَسْكَرِيَّةِ ...

(١) وجهه شطر: سار إلى ناحية القيروان .

وَقَدْ عَقَدَ الْعَزَمَ عَلَى الْأَلَّا يُضِيعَ هَذِهِ الْفُرْصَةَ الَّتِي
أُتِيحَتْ لَهُ ، وَأَنْ يُنْجِزَ مَا عَجَزَ أَسْلَافُهُ عَنْ إِنْجَازِهِ .

فَمَا إِنْ بَلَغَ « الْقَيْرَوَانَ » ؛ حَتَّى جَمَعَ قَادَةَ الْجُنْدِ
وَوُجُوهَ الْقَوْمِ وَعَامَّةَ النَّاسِ ، وَخَاطَبَهُمْ بِبَيَانِهِ الشَّاحِرِ
وَمَنْطِقِهِ الْآسِرِ ، وَعَوَاطِفِهِ الْمُؤَمِّنَةِ الْجَيَّاشَةِ فَكَانَ فِي جُمْلَةٍ
مَا قَالَهُ :

يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ ...

إِنَّمَا أَنَا رَجُلٌ كَأَحَدِكُمْ ، فَمَنْ رَأَى مِنِّي حَسَنَةً
فَلْيَحْمِدِ اللَّهَ ، وَلْيَعْلَمْ أَنَّ عِنْدِي أَمْثَالَهَا .

وَمَنْ رَأَى مِنِّي سَيِّئَةً فَلْيُنْكِرْهَا ^(١) وَلْيَعْلَمْ أَنِّي أُخْطِئُ
كَمَا تُخْطِئُونَ وَأُصِيبُ كَمَا تُصِيبُونَ .

وَقَدْ أَمَرَ وَالْيَكُم عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ مَرْوَانَ أَعَزَّهُ اللَّهُ بِأَنْ
تُدْفَعَ إِلَيْكُم عَطَايَاكُم ^(٢) مُضَاعَفَةً ثَلَاثًا ، فَخُذُوهَا هَنِيئًا
مَرِيئًا .

(١) فليُنْكِرْها : فليدل عليها ، ويؤاخذني بها .

(٢) عطاياكم : رواتبكم التي تستحقونها من بيت المال .

وَمَنْ كَانَتْ لَهُ حَاجَةٌ فَلْيَرْفَعْهَا إِلَيْنَا ...

وَلَهُ عَلَيْنَا قَضَاؤُهَا عَلَى مَا عَزَّ وَهَانَ ، مَعَ
الْمُوَاسَاةِ^(١) لِصَاحِبِهَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

وَلَا حَوْلَ لِي وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَبِهِ
أَسْتَعِينُ .

* * *

ثُمَّ مَضَى مِنْ تَوَّهِ^(٢) إِلَى وَضْعِ خُطَطِهِ وَإِعْدَادِ
جُيُوشِهِ ، وَتَكْتِيبِ كِتَابِيهِ ، وَتَسْمِيَةِ قُوَادِهِ .

فَحَرَصَ أَشَدَّ الْحَرَصِ أَنْ يَجْعَلَ فِي كُلِّ كِتَابِيَّةٍ
مُقَاتِلِينَ خَاضُوا الْمَعَارِكَ فِي الشَّمَالِ الْإِفْرِيقِيِّ نَفْسِهِ ،
وَعَرَفُوا مَدَاحِلَهُ وَمَخَارِجَهُ ...

وَوَقَّفُوا عَلَى مَكَائِدِ الْأَعْدَاءِ ، وَحَذَقُوا أَسَالِيِبَهُمْ فِي
الْقِتَالِ .

وَقَرَّرَ أَنْ يُسَيِّدَ الْقِيَادَاتِ إِلَى ذَوِي الْحِمِيَّةِ وَالطَّاعَةِ

(١) المواسة : التخفيف والتيسير وزيادة المعونة .

(٢) توه : في اللحظة نفسها ، وعلى الفور .

وَالذُّكَاةَ ؛ مِمَّنْ جَاوَزُوا طَيْشَ الشَّبَابِ ، وَلَمْ يَدْخُلُوا فِي
دَعَةِ (١) الْكُهُولِ .

وَأَنْ يَجْعَلَ أَوْلَادَهُ فِي جُمْلَةِ قُوَادِهِ فَهُمْ أَكْثَرُ
حِمِيَّةٍ (٢) لَهُ ، وَأَشَدُّ طَاعَةً لِأَوَامِرِهِ ، وَأَعْظَمُ ثِقَةً بِرَأْيِهِ ...

وَأَنْ يَضُمَّ إِلَيْهِمْ أَتْنَاءَ الشُّهَدَاءِ لِمَا فِي نَفْسِهِمْ مِنْ
الْوَفَاءِ لِآبَائِهِمُ الَّذِينَ ثَوَّوْا تَحْتَ كُثْبَانِ الرِّمَالِ فِي تِلْكَ
الدِّيَارِ شُهَدَاءَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ .

فَعَقَدَ أَرْبَعَةً مِنْ أَلْوِيَّتِهِ لِأَرْبَعَةِ مِنْ أَوْلَادِهِ هُمْ :
عَبْدُ اللَّهِ ، وَمَرْوَانُ ، وَعَبْدُ الْمَلِكِ ، وَعَبْدُ الْعَزِيزِ .

وَعَقَدَ ثَلَاثَةً أُخْرَى لِثَلَاثَةِ مِنْ أَتْنَاءِ عُقْبَةِ بَنِي نَافِعٍ
وَهُمْ : عِيَاضُ ، وَعُثْمَانُ ، وَأَبُو عُبَيْدَةَ .

وَعَقَدَ أَلْوِيَّةَ غَيْرَهَا لِطَائِفَةٍ مِنْ أَتْنَاءِ الْبِلَادِ أَسْلَمُوا
طَائِعِينَ ، وَآمَنُوا مُخْتَارِينَ ، وَعَدَا الْإِسْلَامَ أَحَبُّ إِلَيْهِمْ مِنْ

(١) الدعة : العيش الهادئ .

(٢) أكثر حمية له : أكثر غضباً وعصبية والتفافاً حوله .

نُفُوسِهِمُ الَّتِي بَيْنَ جُنُوبِهِمْ ، وَفِي طَلِيعَتِهِمْ مَوْلَاهُ^(١) طَارِقُ
ابْنُ زِيَادٍ .

* * *

ثُمَّ جَمَعَ قَادَةَ الْجُنْدِ ، وَعُرَفَاءَ الْكَتَائِبِ ، وَوُجُوهَ
الْعَسْكَرِ وَخَطَبَهُمْ قَائِلًا :

أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنَّمَا كَانَ قَبْلِي عَلَى إِفْرِيقِيَّةَ أَحَدُ
رَجُلَيْنِ : إِمَّا مُسَالِمٌ يُؤْثِرُ الْعَافِيَةَ وَيَكْرَهُ أَنْ يُكَلِّمَ^(٢) ، وَيُحِبُّ
أَنْ يَسْلَمَ ...

وَلِإِذَا رَجُلٌ ضَعِيفُ الْخَبَرَةِ قَلِيلُ الْمَعْرِفَةِ يَفْنُونَ
الْحَرْبَ .

وَلَيْسَ أَخُو الْحَرْبِ إِلَّا مَنْ اكْتَحَلَ السَّهَرُ ، وَأَحْسَنَ
النَّظَرَ ، وَخَاضَ الْغَمَرَاتِ^(٣) ، وَسَمَتْ بِهِ هِمَّتُهُ حَتَّى يُبْلِغَ
النَّفْسَ عُذْرَهَا فِي غَيْرِ خَرَقٍ^(٤) يُزِدِيهِ وَلَا غُنْفٍ يُقَاسِيهِ .

(١) مولاہ : تابعہ الذي كان رقيقاً له واعتقه .

(٢) يُكَلِّمُ : يجرح .

(٣) الغمرات : الغمرة هي لجة البحر ، أي المخاطر .

(٤) الخرق : الإسراف .

عَلَى أَنْ يَكُونَ مُتَوَكِّلاً فِي حَزْمٍ، حَازِماً فِي عَزْمٍ،
مُسْتَزِيداً مِنَ الْمَعْرِفَةِ، مُسْتَشِيرَاً لِأَهْلِ الرَّأْيِ، مُتَحَنِّكاً
بِتَجَارِبِهِ، لَيْسَ بِالْمُتَجَابِنِ^(١) إِقْحَاماً وَلَا بِالْمُتَحَاذِلِ
إِحْجَاماً^(٢).

إِنْ ظَفِرَ لَمْ يَزِدْهُ الظَّفَرُ إِلَّا حَذْراً، وَإِنْ خَسِرَ لَمْ تَزِدْهُ
الْخَسَارَةَ إِلَّا جَلَادَةً وَصَبْراً، رَاجِياً مِنَ اللَّهِ حُسْنَ
الْعَاقِبَةِ ...

وَبَعْدُ، فَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلِي كَانَ يَعْمَدُ إِلَى الْعَدُوِّ
الْأَقْصَى^(٣) وَيَتْرُكُ الْعَدُوَّ الْأَدْنَى^(٤)، فَيَسْتَهْزِئُ مِنْهُ الْفُرْصَةَ
وَيَدُلُّ أَعْدَاءَهُ عَلَى الْعَوْرَةِ، وَيَكُونُ عَوْناً عَلَيْهِ عِنْدَ
النَّكْبَةِ^(٥).

وَلِيَّنِي - وَاللَّهِ - لَنْ أَبْرَحَ هَذِهِ الْقِلَاعَ الْمُمَرَّدَةَ^(٦)

(١) المتجابين: المتخاذل المتأخر عن الصفوف .

(٢) الإحجام: التردد وكراهة الإقبال على الأمر .

(٣) الأقصى: الأبعد .

(٤) الأدنى: الأقرب .

(٥) النكبة: المصيبة .

(٦) المردة: المشيدة المرتفعة .

وَالْجِبَالِ الْمُمَنَّةَ إِلَى مَا وَرَاءَهَا ، حَتَّى يَضَعَ اللَّهُ أَرْفَعَهَا (١)
وَيُذِلَّ أَمْنَعَهَا ، وَيَفْتَحَهَا عَلَى الْمُسْلِمِينَ فَتَحاً مُبِيناً ،
أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ .

* * *

ثُمَّ أَطْلَقَ كَتَائِبُهُ دَفْعَةً وَاحِدَةً فِي أَتَجَاهَاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ ،
تَعْدَ أَنْ حُدِّدَ لِكُلِّ كَتِيبَةٍ قَبِيلَةٌ مِنَ الْقَبَائِلِ الثَّائِرَةِ ، أَوْ عِصَابَةٌ
مِنَ الْعِصَابَاتِ النَّاكِثَةِ (٢) الْغَادِرَةِ ، أَوْ قَلْعَةٌ مِنَ الْقِلَاعِ
الْمُسْتَعْصِيَةِ .

فَأَفَاقَتْ إِفْرِيقِيَّةَ ذَاتِ صَبَاحٍ ، فَإِذَا بِالْأَرْضِ تَتَرَلْزَلُ
تَحْتَ أَقْدَامِهَا فِي كُلِّ مَكَانٍ ...

وَشَعَرَ « الرُّومُ » وَ « الْبَرْبَرُ » مَعاً ، أَنَّ دَمًا جَدِيداً سَرَى
فِي عُرُوقِ الْمُسْلِمِينَ ، وَعَزْماً عَتِيداً نَبَضَ فِي أَعْصَابِهِمْ ،
وَقِيَادَةً حَازِمَةً أَحْكَمَتْ أَمْرَهُمْ .

وَقَدْ شَعَلَتْهُمْ الْجَائِحَةُ (٣) الَّتِي عَمَّتْهُمْ جَمِيعاً عَنْ أَنْ

(١) أرفعها : أعلاها .

(٢) الناكثة : الناقضة للعهود والمواثيق . (٣) الجائحة : المصيبة .

يَنْصُرَ الْحَلِيفُ حَلِيفَهُ ، أَوْ أَنْ يُعِينَ الْأَخُ أَخَاهُ ...

فَلِكُلِّ قَبِيلَةٍ يَوْمَئِذٍ خُطْبٌ يُرَدِّدُهَا ، وَشَأْنٌ يُغْنِيهَا .

وَكَانَ مُوسَى بْنُ نُصَيْرٍ مُوزَّعاً عَلَى الْقِيَادَاتِ كُلِّهَا ،
مُتَّصِلاً بِهَا جَمِيعَهَا ، وَلَا تَفُوتُهُ حَرَكَةٌ مِنْ حَرَكَاتِهَا ،
وَلَا يَغِيبُ عَنْهُ تَصَرُّفٌ مِنْ تَصَرُّفَاتِهَا .

وَمَا هُوَ إِلَّا قَلِيلٌ حَتَّى أَخَذَتْ تَتَوَالَى الْإِنْتِصَارَاتُ ،
وَتَتَسَاقَطُ الْحُصُونُ ، وَتَسْتَسْلِمُ الْقَبَائِلُ ، وَتُسَاقُ الْغَنَائِمُ
تِلْوَ الْغَنَائِمِ ؛ عَلَى وَجْهِ فَاقَ خِيَالِ الْمُتَحَيِّلِينَ وَجَاوَزَ
حِسَابَ الْحَاسِبِينَ ...

* * *

وَمَضَى الْمُبَشِّرُونَ مِنَ « الْقَيْرَوَانِ » فِي « الْمَغْرِبِ »
إِلَى « الْفُسْطَاطِ » فِي « مِصْرَ » يَحْمِلُونَ إِلَى أَمِيرِهَا
عَبْدَ الْعَزِيزِ بْنِ مَرْوَانَ أَخْبَارَ النَّصْرِ الْكَبِيرِ .

فَمَا إِنْ تَلَقَّى الْأَمِيرُ بَشَارَتَهُمْ حَتَّى خَرَّ سَاجِداً شُكْراً
لِلَّهِ وَاهِبِ النَّصْرِ .

وَكَانَ الْمُبَشِّرُونَ يَحْمِلُونَ إِلَى أَمِيرٍ «مِصْرَ» كِتَابًا
 مِنْ مُوسَى بْنِ نُصَيْرٍ يُثَبِّتُ لَهُ فِيهِ مَا نَقَلَهُ الرِّجَالُ مِنْ أَخْبَارٍ .
 وَمَعَ الْكِتَابِ بَيَانٌ بِنَصِيبِ بَيْتِ مَالِ الْمُسْلِمِينَ مِنَ
 الْعَنَائِمِ .

وَقَدْ جَاءَ فِي هَذَا الْبَيَانِ أَنَّ حِصَّةَ بَيْتِ الْمَالِ مِنَ
 الرِّقِيقِ قَدْ بَلَغَتْ ثَلَاثِينَ أَلْفًا .

فَلَمَّا هَمَّ عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ مَرْوَانَ بِإِرْسَالِ كِتَابِ مُوسَى
 ابْنِ نُصَيْرٍ إِلَى الْخَلِيفَةِ فِي «دِمَشْقَ» ؛ اسْتَكْثَرَ هَذَا الْعَدَدَ ،
 وَخَشِيَ أَنْ يَكُونَ كَاتِبُ مُوسَى بْنِ نُصَيْرٍ قَدْ زَلَّ^(١) قَلَمُهُ
 أَوْ أَخْطَأَ حِسَابَهُ ؛ فَرَادَ فِي عَدَدِ الرِّقِيقِ زِيَادَةً لَا يُصَدِّقُهَا
 الْعَقْلُ ، وَأَلْزَمَ مُوسَى أَمَامَ دَارِ الْخِلَافَةِ بِمَا لَا يَسْتَطِيعُ الْوَفَاءُ
 بِهِ ...

فَارْسَلَ إِلَى مُوسَى بْنِ نُصَيْرٍ كِتَابًا قَالَ فِيهِ :
 «لَقَدْ جَاءَ فِي بَيَانِكَ أَنَّ حِصَّةَ بَيْتِ الْمَالِ مِنَ

(١) زل : تعثر وأخطأ القصد .

السَّيِّي قَدْ بَلَغَتْ ثَلَاثِينَ أَلْفًا .

وَهَذَا لَا يَتَحَقَّقُ إِلَّا إِذَا كَانَتْ غَنِيمَتُكُمْ قَدْ بَلَغَتْ
مِائَةً وَخَمْسِينَ أَلْفًا مِنَ الرَّقِيقِ .

وَلَعَلَّ كَاتِبَكَ قَدْ أَدْرَكَهُ السَّهْوُ أَوْ فَاتَهُ أَنَّ حِصَّةَ بَيْتِ
الْمَالِ إِنَّمَا هِيَ الْخُمْسُ مِمَّا أَفَاءَ^(١) اللَّهُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ
لَا أَكْثَرَ .

فَلَمَّا أَخَذَ مُوسَى بْنُ نُصَيْرٍ الرِّسَالَةَ ؛ كَتَبَ إِلَى
عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ مَرْوَانَ يَقُولُ :

« حَقًّا لَقَدْ سَهَا الْكَاتِبُ وَزَلَ قَلَمُهُ ...

فَحِصَّةُ بَيْتِ الْمَالِ مِنَ الرَّقِيقِ لَيْسَتْ ثَلَاثِينَ أَلْفًا
وَلِإِنَّمَا هِيَ سِتُونَ أَلْفًا .

فَإِذَا بَعَثْتُمْ مَنْ يَقْبِضُهَا لَكُمْ دَفَعْنَاهَا إِلَيْهِ ، وَزِدْنَاهُ أَلْفًا
هَدِيَّةً مِنْ جُنْدِ الْمُسْلِمِينَ إِلَى خَلِيفَتِهِمْ فِي الْبَيْتِ . »

فَبَعَثَ عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ مَرْوَانَ إِلَى أَخِيهِ عَبْدِ الْمَلِكِ

(١) أفاء : أعطى وأنعم .

بِرِسَالَةِ مُوسَى بْنِ نُصَيْرٍ وَكَتَبَ لَهُ مَعَ الرِّسَالَةِ كِتَابًا بِجَاءَ فِيهِ :

أَمَّا بَعْدُ ، فَقَدْ كُنْتُ أَنَا وَآمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ - أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَهُ - فِي شَأْنِ مُوسَى بْنِ نُصَيْرٍ وَحَسَّانَ بْنِ التُّعْمَانِ كَمُتْرَاهَيْنِ أَرْسَلَا فَرَسَيْهِمَا إِلَى غَايَةِ وَاحِدَةٍ ، فَسَبَقَ أَحَدُهُمَا إِلَى الْغَايَةِ .

وَأَنَّ لَكَ - يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ - عِنْدَ مُوسَى بْنِ نُصَيْرٍ الْمَزِيدَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

وَقَدْ جَاعَنِي - يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ - كِتَابٌ مِنْ مُوسَى بْنِ نُصَيْرٍ ، وَقَدْ وَجَّهْتُهُ إِلَيْكَ لِتَقْرَأَهُ بِنَفْسِكَ ، وَتَحْمَدَ اللَّهُ عَلَيْهِ ...

وَالسَّلَامُ .

* * *

وَلَقَدْ عَمَّتْ فَرْحَةُ الْمُسْلِمِينَ بِالنُّصْرِ الْكَبِيرِ مَشَارِقَ الْأَرْضِ .

غَيْرَ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ أَحْرَزُوا النَّصْرَ الْعَظِيمَ كَانُوا
فِي شُغْلٍ شَاغِلٍ عَنِ نَصْرِهِمْ ...

ذَلِكَ لِأَنَّ إِقْلِيمَ إِفْرِيقِيَّةَ كَانَ قَدْ انْحَبَسَ عَنْهُ
الْغَيْثُ ^(١) لِعِدَّةِ سَنَوَاتٍ مُتَوَالِيَاتٍ فَأَصَابَهُ الْجَفَافُ ، وَنَزَلَ
بِهِ الْقَحْطُ ، وَحَاقَ بِهِ الْفَقْرُ ، وَتَدَرَّتْ فِيهِ الْأَقْوَاتُ ،
وَارْتَفَعَتْ عَلَى سُكَّانِهِ الْأَسْعَارُ بَعْدَ أَنْ هَلَكَ الزَّرْعُ وَجَفَّ
الضَّرْعُ .

فَلَمْ يَجِدْ مُوسَى بْنُ نَصِيرٍ سَبِيلًا إِلَى كَشْفِ هَذَا
الضَّرِّ غَيْرَ اللُّجُوءِ إِلَى اللَّهِ جَلَّ وَعَزَّ .

فَأَمَرَ النَّاسَ بِالصُّومِ وَالصَّلَاةِ ...

وَحَضُّهُمْ عَلَى التَّوْبَةِ وَالِاسْتِغْفَارِ ...

وَدَعَاهُمْ إِلَى إِصْلَاحِ دَخَائِلِ نُفُوسِهِمْ حَتَّى تَتَطَهَّرَ
قُلُوبُهُمْ بِالتَّوْبَةِ ، وَتَزْكُو أَعْيُنُهُمْ بِالطَّاعَةِ ، وَتَطْهَرَ أَنْفُسُهُمْ
عِنْدَ الدَّعَاءِ .

* * *

(١) الغيث : المطر الذي يغيث الناس .

ثُمَّ خَرَجَ بِالنَّاسِ ... كُلُّ النَّاسِ إِلَى الصُّخْرَاءِ ، شَيْبًا
وَشُبَّانًا ، وَفَتَيَاتٍ وَوِلْدَانًا ، وَرِجَالًا وَنِسَاءً .

وَأَخْرَجَ مَعَ النَّاسِ الْبَهَائِمَ ؛ وَقَدْ هَزَلَتْ أَجْسَادُهَا
وَلَصِقَتْ بَطُونُهَا بِظُهُورِهَا ، وَكَفَّتْ ضُرُوعُهَا عَنِ الدَّرِّ .

وَفَرَّقَ بَيْنَ الْأُمّهَاتِ وَصِغَارِهَا مِنَ الْإِنْسَانِ
وَالْحَيَوَانِ ، وَأَقَامَ بَيْنَهُمَا فَاصِلًا .

فَتَعَالَى بُكَاءُ الْأُمّهَاتِ ، وَاشْتَدَّ صُرَاخُ الْأَطْفَالِ ،
وَتَغَاءَ الْمَوَاشِي ...

وَارْتَفَعَ الصُّجُجُ وَالْعَجِيجُ حَتَّى بَدَأَ الْجَمِيعُ
وَكَاثَهُمْ فِي سَاحَةِ الْحَشْرِ .

وَأَقَامَ الْجَمِيعُ عَلَى ذَلِكَ وَهُمْ يَبْتَهِلُونَ وَيَتَضَرَّعُونَ
حَتَّى انْتَصَفَ النَّهَارُ .

ثُمَّ نَهَضَ مُوسَى بْنُ نُصَيْرٍ إِلَى الصَّلَاةِ خَاشِعَ
الْقَلْبِ ، مُنَكَّسَ الرَّأْسِ ، دَامِعَ الْعَيْنَيْنِ .

وَصَلَّى فِي النَّاسِ فِي خُضُوعٍ وَذِلَّةٍ وَانْكِسَارٍ .

ثُمَّ خَطَبَ بِهِمْ خُطْبَةً مُجَلَّلَةً بِالِاسْتِغْفَارِ مُكَلَّلَةً
بِالدُّعَاءِ ... غَيْرَ أَنَّهُ لَمْ يَذْكُرْ فِي الْخُطْبَةِ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ،
وَلَمْ يَدْعُ لَهُ كَمَا جَرَتْ بِذَلِكَ الْعَادَةُ .

فَإِذَا صَوْتُ يَرْتَفِعُ مِنْ وَرَاءِ الصُّفُوفِ قَائِلًا :
أَلَا تَذْكُرُ فِي هَذَا الْمَقَامِ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يَا بَنَ
نَصِيرٍ ؟ !

فَرَدَّ مُوسَى عَلَى صَاحِبِ الصَّوْتِ قَائِلًا :
هَذَا مَقَامٌ لَا يَذْكُرُ فِيهِ غَيْرُ اللَّهِ تَعَالَى ، وَلَا يُرْفَعُ فِيهِ
سِوَى اسْمِهِ ، وَقَدْ وَعَدْنَا فِي مُحْكَمِ كِتَابِهِ أَنْ يُجِيبَ
دُعَاءَنَا فَقَالَ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ :

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ
دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ (١) .

* * *

وَمَا هِيَ إِلَّا لَحَظَاتٌ حَتَّى هَبَّتِ الرِّيحُ الْبَارِدَةُ ،

(١) سورة البقرة : آية ١٨٦ .

وَامْتَلَأَ الْجَوُّ بِالسَّحَابِ الْمُطِيرِ ، وَأَرْسَلَ اللَّهُ السَّمَاءَ عَلَى
الْأَرْضِ مِدْرَاراً^(١) ...

فَرَوَيْتِ الْأَكْبَادُ الْعَطَشَى ...

ثُمَّ نَبَتَ الزَّرْعُ ، وَحَفَلَ الصُّرْعُ ...

وَقَوَّتِ الْعُيُونُ ، وَاطْمَأَنَّتِ الْقُلُوبُ .

(١) مِدْرَاراً: مطراً لا ينقطع نفعه ، وتؤمن مخاطره .

بَيْتُ الْحِكْمَةِ

تَزُوي كُتُبُ التَّارِيخِ الْعَرَبِيَّةِ وَالْأَجْنِبِيَّةِ أَنَّ «لُدْرِيقَ»
قَائِدَ الْجُيُوشِ «الإِسْبَانِيَّةِ» حِينَ ثَارَ عَلَى مَلِكِ الْبِلَادِ
«غَيْطَشَةَ» وَانْتَرَعَ مِنْهُ عَرْشَهُ، وَأَعْلَنَ نَفْسَهُ مَلِكاً عَلَى
«الْقُوطِ» ... طَفِقَ يَبِيعُ فِي الْبِلَادِ فَسَاداً، وَيَجْتَرِحُ^(١)
- بِسَبَبِ نَزَقِهِ وَطَيْبِيهِ وَعُغْجِيَّتِهِ - الْكَثِيرَ مِنَ السَّيِّئَاتِ،
وَيَعْتَدِي عَلَى الْحُقُوقِ وَالْحُرُمَاتِ ...

وَكَانَ فِي جُمْلَةٍ مَا اجْتَرَحَهُ عُذْوَانُهُ عَلَى «بَيْتِ
الْحِكْمَةِ» ...

وَبَيْتُ الْحِكْمَةِ هَذَا بِنَاءٌ مُقَدَّسٌ عِنْدَ «الْقُوطِ» بَنَاهُ
قُدَمَاءُ مُلُوكِهِمْ، وَطَوَّقَهُ الشَّعْبُ عَبْرَ التَّارِيخِ بِكَثِيرٍ مِنَ
الْأَسْرَارِ، وَنَسَجَ حَوْلَهُ عَدِيداً مِنَ الْأَسَاطِيرِ وَالْأَخْبَارِ،
وَوَشَّحَهُ بِغِلَالَةٍ مِنَ الْعُمُوضِ، وَأَحَاطَهُ بِهَالَةٍ مِنَ الْهَيْبَةِ
وَالْتَّوْقِيرِ ...

(١) يَجْتَرِحُ : يَقْتَرِفُ .

وَلَقَدْ أَقْبَلَ « بَيْتُ الْحِكْمَةِ » هَذَا مُنْذُ تَمَّ بِنَاؤُهُ فِي
التَّارِيخِ السَّحِيقِ ^(١)، وَظَلَّ مُقْفَلًا عَلَى مَرِّ السِّنِينَ .
فَلَا يَعْرِفُ أَحَدٌ مَا الَّذِي يُكْنِيهِ ^(٢) بَيْنَ جُذُرَائِهِ ،
أَوْ يَحْفَظُهُ تَحْتَ سَقْفِهِ .

وَكَانَ كُلَّمَا اعْتَلَى عَرْشَ « الإِسْبَانِ » مَلِكٌ مِنَ
الْمُلُوكِ ؛ مَضَى إِلَى بَيْتِ الْحِكْمَةِ هَذَا ، وَأَضَافَ إِلَى
أَقْفَالِهِ السَّابِقَةِ قُفْلًا جَدِيدًا .

حَتَّى بَلَغَتْ الْأَقْفَالُ الَّتِي تُطَوَّقُ بَابَهُ سَبْعَةً وَعِشْرِينَ
قُفْلًا ، وَضَعَهَا سَبْعَةٌ وَعِشْرُونَ مَلِكًا .

وَكَانَ يَقُومُ عَلَى سِدَانِهِ ^(٣) هَذَا الْبَيْتِ طَائِفَةٌ مِنَ
ثِقَاتِ الرُّجَالِ مِمَّنْ عُرِفُوا بِالشَّرَفِ وَالْأَمَانَةِ وَالْحَزَمِ ...
وَكَانُوا كُلُّمَا خَلَا مِنْهُمْ سَيِّدٌ بِسَبَبِ الْوَفَاةِ قَامَ مَقَامَهُ
سَيِّدٌ آخَرٌ ...

(١) التاريخ السحيق : البعيد العميق .

(٢) يكنه : يستره ويخفيه .

(٣) سِدَانَةُ الْبَيْتِ : خدمته والقيام بشئونه .

فَلَمَّا اسْتَقَرَّ الْأَمْرُ لِلذَّرِيقِ ؛ جَاءَهُ سَدَنُهُ « بَيْتِ
 الْحِكْمَةِ » وَسَأَلُوهُ أَنْ يُحَدِّدَ يَوْمًا يَزُورُ فِيهِ الْبَيْتَ ، وَيُضِيفُ
 إِلَى أَقْفَالِهِ قُفْلًا جَدِيدًا جُزْئِيًّا عَلَى سُنَّةِ الْمُلُوكِ الْغَابِرِينَ ...
 فَمَا كَانَ مِنْ « لُذْرِيْقٍ » إِلَّا أَنْ قَالَ لَهُمْ :

لَسْتُ بِفَاعِلٍ ذَلِكَ إِلَّا إِذَا فَتَحْتُ بَابَ هَذَا الْبَيْتِ ،
 وَعَرَفْتُ مَا الَّذِي يُحْبِئُهُ فِي أَحْشَائِهِ .

فَقَالُوا :

أَيُّهَا الْمَلِكُ ، إِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ مِنَ الْمُلُوكِ لَمْ
 يَجْتَرِئُ عَلَى فَضِّ أَقْفَالِ هَذَا الْمَكَانِ الْمُقَدَّسِ ، وَلَمْ
 تُحَدِّثْهُ نَفْسُهُ بِفَتْحِ أَبْوَابِهِ ...

وَلِإِنَّ مَا تَوَارَثْنَاهُ مِنْ أَخْبَارٍ يُحَدِّثُنَا مِنْ هَتَكِ حِجَابِهِ
 وَكَشْفِ أَسْرَارِهِ ، وَيُنْذِرُنَا بِالشَّرِّ الْمُسْتَطِيرِّ إِذَا نَحْنُ فَعَلْنَا
 ذَلِكَ .

فَقَالَ : لَا بُدَّ لِي مِنْ فَتْحِهِ ، وَلَيْكُنْ مَا يَكُونُ ...
 وَسَرَى خَبْرُ عَزْمِ « لُذْرِيْقٍ » عَلَى فَتْحِ أَبْوَابِ « بَيْتِ

الْحِكْمَةِ « فِي طُولِ الْبِلَادِ وَعَرْضِهَا ؛ كَمَا تَسْرِي النَّارُ فِي
الْهَشِيمِ ^(١) .

وَأَشْفَقَ النَّاسُ مِنْ هَذِهِ الْفَعْلَةِ الْكَبِيرَةِ الَّتِي أَرَادَ
« لَذْرِيقُ » أَنْ يَبُوءَ ^(٢) بِإِثْمِهَا .

فَمَشَى إِلَيْهِ عَلَيْهِ الْقَوْمُ ، وَوُجُوهُ الْبِلَادِ ضَارِعِينَ
رَاجِينَ ... فَرَدُّهُمْ كَاسِفِينَ مَحْزُونِينَ ، وَأَعْلَنَ لَهُمْ إِصْرَارَهُ
عَلَى إِنْفَازِ مَا عَزَمَ عَلَيْهِ ...

* * *

وَفِي ذَاتِ صَبَاحٍ مَضَى « لَذْرِيقُ » فِي كَوْكَبَةٍ مِنْ
قَادَةِ جَيْشِهِ ، وَرِجَالِ حَاشِيَّتِهِ إِلَى « بَيْتِ الْحِكْمَةِ » ،
وَفَضَّ أَقْفَالَهُ السَّبْعَةَ وَالْعَشْرِينَ ، وَفَتَحَ بَابَهُ الْكَبِيرَ الَّذِي
مَا امْتَدَّتْ إِلَيْهِ يَدٌ مُنْذُ أُغْلِقَ أَوَّلَ مَرَّةٍ ...

وَأَفْتَحَ الْبَيْتَ يَمَنْ مَعَهُ ؛ وَهُوَ يَحْسَبُ أَنَّ فِيهِ كَنْزاً
مِنْ كُنُوزِ الْقُرُونِ الْخَالِيَةِ ، لَكِنَّهُ لَمْ يَجِدْ فِيهِ غَيْرَ صُنْدُوقٍ
مُتَقَفِلٍ ...

(١) الهشيم : النبات اليابس . (٢) يَبُوءُ بِإِثْمِهَا : يتحمل عاقبة ذنبه .

فَأَمَرَ بِفَضْ قُفْلِهِ ... فَتَوَجَّسَ ^(١) رِجَالُهُ خِيفَةً مِنْ فَتْحِ
الصُّنْدُوقِ ، وَازْتَعَدَتْ أَفْعِدَتُهُمْ خَشْيَةً مِنْ ذَلِكَ .
غَيْرَ أَنَّهُمْ مَا لَبِثُوا أَنْ أَدْعَنُوا ^(٢) لِأَمْرِهِ ، وَفَتَحُوهُ
تَحْتَ وَطْأَةِ إِصْرَارِهِ .

فَإِذَا فِيهِ خَرِيطَةٌ مُدْرَجَةٌ فِي إِحْكَامٍ .
فَلَمَّا نَشَرُوهَا وَجَدُوا فِيهَا صُورًا لِرِجَالٍ يَلْبَسُونَ
الْعَبَائِتَ ، وَيَعْتَجِرُونَ ^(٣) الْعَمَائِمَ ؛ قَدْ امْتَطَوْا مُثُونِ
الْخَيُْولِ الْعِرَابِ ...
وَتَقَلَّدُوا السُّيُوفَ الْمُزَهَّفَةَ ، وَتَنَكَّبُوا الْقِيسِيَّ
الْمُحْكَمَةَ ، وَرَفَعُوا الرِّايَاتِ فَوْقَ الرِّمَاحِ ...
وَقَدْ وَجَدُوا فِي أَغْلَى الْخَرِيطَةِ سَطْرًا مَكْتُوبًا بِلُغَةٍ
قَدِيمَةٍ ...

فَاسْتَحْضَرُوا أَهْلَ الْعِلْمِ لِقِرَاءَةِ ذَلِكَ السَّطْرِ ، فَإِذَا

فِيهِ :

(١) فتوجس خيفة : شعر بالخوف .

(٢) أدعنوا : أطاعوا وانقادوا . (٣) يعتجرون العمام : يلفون العمام .

« إِذَا كُسِرَتِ الْأَقْفَالُ عَنْ هَذَا الْبَيْتِ ، وَفُتِحَ
 التَّابُوتُ الَّذِي فِيهِ ، وَاطَّلَعَ أَحَدٌ عَلَى الصُّورَةِ الَّتِي فِي هَذِهِ
 الْخَرِيطَةِ ... فَإِنَّ الْقَوْمَ الَّذِينَ صُوِّرُوا عَلَى صَفْحَتِهَا
 سَيَفْتَحُونَ الْبِلَادَ ، وَيُزِيلُونَ مُلْكَ « الْقُوطِ » ، وَيُقِيمُونَ
 لِأَنْفُسِهِمْ عَرْشاً فِي رُبُوعِهَا ... »

فَجَزِعَ « لُذْرِيْقُ » لِمَا رَأَى وَمَا سَمِعَ ، وَنَدِمَ عَلَى
 عِنَادِهِ وَلِإِصْرَارِهِ .

وَأَمَرَ بِأَنْ تُلْقَى الْخَرِيطَةُ فِي الصُّنْدُوقِ ، وَأَنْ يُعَادَ
 قَفْلُهُ ، وَأَنْ يُوصَدَ بَابُ « بَيْتِ الْحِكْمَةِ » ، وَأَنْ تُلْقَى عَلَيْهِ
 أَقْفَالُهُ كَمَا كَانَتْ مِنْ قَبْلُ .

* * *

وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ هَذِهِ الْقِصَّةَ تَشْتَمِلُ عَلَى عَنَاصِرٍ
 مِنَ الْحَقِيقَةِ وَأُخْرَى لَا تَقِلُّ عَنْهَا مِنَ الْخَيَالِ .

فَإِنَّهَا تُصَوِّرُ الْقَلَقَ الْعَمِيقَ الَّذِي كَانَ يُخَافِرُ^(١)

(١) يخامر : يخالط .

نُفُوسَ « الْقُوطِ » مِنْ جِيرَانِهِمْ الْجُدُدِ ...

وَتُعَبِّرُ عَنْ تَرْقِيهِمْ لِلْغَزْوَةِ الْكَاسِحَةِ الَّتِي غَدَتْ فِي
حُسْبَانِهِمْ أَمْرًا لَا رَيْبَ فِيهِ ...

وَتُبْرِزُ جَزَعَهُمُ الشَّدِيدَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ حَتَّى بَاتُوا
يَتَحَيَّلُونَهُمْ فِي كُلِّ شَيْءٍ ، وَيُبْصِرُونَهُمْ فِي كُلِّ صُورَةٍ ،
وَيَتَوَقَّعُونَهُمْ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ .

فَمَا الَّذِي جَعَلَ « الْقُوطَ » يَعِيشُونَ هَذِهِ الْمَشَاعِرَ
الرَّهِيبةَ الْمُدمِّرةَ !!؟ ...

وَهُمْ قَوْمٌ شَهِدَ لَهُمُ الْأَعْدَاءُ قَبْلَ الْأُصْدِقَاءِ بِصَلَابَةٍ
الْعَزِيمَةِ ، وَقُوَّةِ الشَّكِيمَةِ^(١) ، وَشِدَّةِ الْبَأْسِ .

وَعَرَفَتْهُمْ مَيَادِينُ الْقِتَالِ أَبْطَالًا مُحَارِبِينَ .

وَحَفَلَتْ كُتُبُ التَّارِيخِ بِأَخْبَارِ قُدْرَتِهِمْ عَلَى إِخْرَازِ
النَّصْرِ حِينَ يَعِزُّ النَّصْرُ^(٢) .

(١) قوة الشكيمة : الشددة والبأس .

(٢) يعز النصر : يغلو ويصبح بعيد المنال .

إِنَّ السَّبَبَ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ يَرْجِعُ إِلَى عِبَقَرِيَّةِ الْإِسْلَامِ
وَشَخْصِيَّةِ مُوسَى بْنِ نُصَيْرِ الْقَدَّةِ ، وَقُدْرَتِهِ الْفَرِيدَةِ عَلَى
تَمَثُّلِ هَذِهِ الْعِبَقَرِيَّةِ ، وَوَضْعِهَا مَوْضِعَ التَّطْبِيقِ فِي إفْرِيقِيَّةَ
وَالْمَغْرِبَيْنِ الْأَوْسَطِ وَالْأَقْصَى .

فَلَقَدْ اسْتَطَاعَ أَنْ يُقَرِّ فِي نُفُوسِ الَّذِينَ أَسْلَمُوا مِنْ
سُكَّانِ الْبِلَادِ الْمَفْتُوحَةِ أَنَّ الْعَرَبَ إِخْوَةٌ لَهُمْ فِي الدِّينِ ،
وَلَيْسُوا كَالرُّومَانِ سَادَةٌ فَاتِحِينَ .

وَأَنَّهُمْ مَا نَهَدُوا إِلَيْهِمْ مِنْ بَطْنِ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ طَمَعاً
فِي مَغْنَمٍ مِنْ مَغَانِمِ الدُّنْيَا ، أَوْ شَهْوَةً فِي سُلْطَانٍ مِمَّا يَسْعَى
إِلَيْهِ الْفَاتِحُونَ الَّذِينَ عَرَفَهُمُ التَّارِيخُ .

وَلِئَلَّا جَاءَهُمْ يَحْمِلُونَ إِلَيْهِمُ الْعَقِيدَةَ الْبَانِيَّةَ^(١) ،
وَالْيَدَ الْحَايِيَّةَ ، وَالشُّرْعَةَ الَّتِي تُسَاوِي الْإِنْسَانَ بِأَخِيهِ
الْإِنْسَانِ .

* * *

(١) العقيدة البانية : أي الإسلام .

لَقَدْ بَثَّ بَيْنَهُمُ الْعُلَمَاءَ لِيَفْقَهُوهُمْ فِي دِينِ اللَّهِ ،
وَالْقُرَّاءَ لِيَقْرَأُوهُمْ كِتَابَ اللَّهِ ، وَالْمُحَدِّثِينَ لِيَزُودُوا لَهُمْ
حَدِيثَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ...

فَبَدَأَ لَهُمُ الْفُرُقُ الْكَبِيرُ بَيْنَ « الرُّومِ » الَّذِينَ جَاءُوهُمْ
مُسْتَعْبِدِينَ مُسْتَعْلِينَ ، وَالْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ وَفَدُوا عَلَيْهِمْ
هَذَاهُ مُعْلِمِينَ .

* * *

وَلَقَدْ اِغْتَبَرَ الْأَرْضَ الَّتِي كَانَتْ فِي أَيْدِي « الرُّومِ »
مَفْتُوحَةً حَرْبًا ؛ فَالَتْ بِسَبَبِ ذَلِكَ إِلَى الْفَاتِحِينَ .

وَاعْتَبَرَ الْأَرْضَ الَّتِي كَانَتْ فِي أَيْدِيهِمْ مَفْتُوحَةً
صُلْحًا ؛ فَتَقَيَّتْ فِي أَيْدِي أَصْحَابِهَا مِنْ أَتْنَاءِ الْبِلَادِ ...

فَكَشَفَ لَهُمْ بِذَلِكَ عَنْ زُهْدِ الْمُسْلِمِينَ بِمَا فِي
حُوزَتِهِمْ مِنْ عَرَضِ الدُّنْيَا ^(١) ، وَرَغْبَتِهِمْ بِمَا عِنْدَ اللَّهِ مِنْ
حُسْنِ الثَّوَابِ .

* * *

(١) عرض الدنيا : متاع الدنيا العارض .

ثُمَّ إِنَّهُ أَشْرَكَهُمْ فِي حَرَكَةِ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ،
وَضَمَّهُمْ إِلَى دِيْوَانِ الْجُنْدِ مَعَ إِخْوَانِهِمُ الْعَرَبِ سَوَاءً
بِسَوَاءٍ ...

فَأَشْعَرَهُمْ بِأَنَّهُمْ غَدَوْا أَصْحَابَ قَضِيَّةٍ يُدَافِعُونَ
عَنْهَا ، وَحَمَلَةَ رِسَالَةٍ يُنَاضِلُونَ فِي سَبِيلِ إِبْلَاقِهَا لِلنَّاسِ .
ثُمَّ إِنَّهُ وَلَّى الْقِيَادَاتِ وَالْإِمَارَاتِ لِلأَصْلَحِ أَيُّمَا كَانَ
جَنْسُهُ ...

فَهَذَا قَائِدٌ « بَزْبَرِي » يَنْضَوِي تَحْتَ لِيَوَائِهِ عَرَبٌ
خُلُصٌ^(١)؛ فَيَسْمَعُونَ وَيُطِيعُونَ ...

وَذَلِكَ قَائِدٌ عَرَبِيٌّ تُعَقِّدُ لَهُ الرَّاْيَةُ عَلَى جُنْدٍ مِنْ
« الْبَزْبَرِ »؛ فَيَجْعَلُونَ نُحُورَهُمْ دُونَ نَحْرِهِ ، وَصُدُورَهُمْ
وِقَاءً لِيَصْدُرِهِ .

فَوَجَدُوا فِي ذَلِكَ تَرْجَمَةً صَادِقَةً لِمَا نَادَى بِهِ
الْإِسْلَامُ مِنْ أَنَّهُ لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ ، وَلَا لِعَجَمِيٍّ

(١) عرب خلص : عرب خجالصون .

عَلَى عَرَبِيٍّ إِلَّا بِالتَّقْوَى ...

وَأَنَّ النَّاسَ كُلَّهُمْ لِبَادِمٍ ، وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ .

* * *

وَلَقَدْ تَذَوَّقَ « الْبَرْبَرُ » بِفَضْلِ حَزْمِ مُوسَى بْنِ نُصَيْرٍ
وَعَزَمِهِ وَحُكْمِيهِ وَحِكْمَتِهِ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ فِي حَيَاتِهِمْ طَعْمَ
الِاسْتِقْرَارِ ، وَسَيَادَةِ النِّظَامِ ، وَانْتِشَارِ الْأَمْنِ .

وَأَحْسُوا بِأَنَّهُمْ سَادَةٌ عَلَى أَرْضِهِمْ ...

أَحْرَارًا فِي أَوْطَانِهِمْ ... قَادِرُونَ عَلَى الْإِنْصِرَافِ إِلَى
الْبِنَاءِ وَالْإِنْتِاجِ ... بَعْدَ أَنْ عَاشُوا ذَهْرًا طَوِيلًا فِي خِصَامٍ مَعَ
« الرُّومِ » الَّذِينَ انْقَضُوا عَلَيْهِمْ مِنَ الْخَارِجِ .

أَوْ شِقَاقٍ^(١) بَيْنَ الْأَشْقَاءِ الْمُتَنَازِعِينَ الْمُتَخَاصِمِينَ
فِي الدَّاحِلِ .

* * *

وَلَقَدْ وَجَدَ « الْبَرْبَرُ » فِي شُرْعَةِ الْإِسْلَامِ حَلًّا
لِمُشْكِلَاتِهِمْ الدُّنْيَوِيَّةِ وَالْدِّينِيَّةِ .

(١) شقاق : خلاف وانقسام .

وَفِي لُغَةِ الْقُرْآنِ بَدِيلًا عَنْ لُغَاتِهِمُ الْعَاجِزَةِ عَنِ الْوَفَاءِ
بِحَاجَاتِ الْحَيَاةِ .

وَكَانَ مِنْ ثَمَرَاتِ هَذِهِ السِّيَاسَةِ السَّيِّدَةِ الَّتِي
اعْتَمَدَهَا مُوسَى بْنُ نُصَيْرٍ ، أَنْ أَقْبَلَ النَّاسُ عَلَى الدُّخُولِ فِي
دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا أَفْوَاجًا ...

وَأَكْبَهُوا عَلَى حِفْظِ كِتَابِ اللَّهِ آتَاءَ اللَّيْلِ وَأَطْرَافِ
النَّهَارِ ...

وَتَعَلَّمُوا الْعَرَبِيَّةَ فِي مُدَّةٍ وَجِيزَةٍ حَبِثَتْ أَذْهَانَ
الْبَاحِثِينَ .

حَتَّى وَجَدْنَا « طَارِقَ بْنَ زِيَادِ الْبَرْبَرِيِّ » ؛ يَخْطُبُ
فِي جُنْدِهِ وَهُوَ عَلَى جَبَلِ طَارِقٍ حُطْبَتُهُ الرَّائِعَةُ الَّتِي ارْذَانَتْ
بِهَا كُتُبُ الْأَدَبِ ، وَتَنَاقَلَهَا الْفُصَحَاءُ الْأَبْنَاءُ جِيلًا بَعْدَ
جِيلٍ ، وَحَفِظَهَا الْمَلَائِكَةُ مِنْ أَبْنَاءِ لُغَةِ الْقُرْآنِ .

* * *

وَلَقَدْ لَقِيَ مُوسَى بْنُ نُصَيْرٍ مِنْ دَارِ الْخِلَافَةِ فِي

« دِمَشَق » غَايَةَ مَا يَطْمَحُ إِلَيْهِ قَائِدٌ مِنْ عَوْنٍ وَتَأْيِيدٍ .

حَيْثُ شَدَّ الْخُلَفَاءُ أَرْزَهُ ، وَحَمَّوْا ظَهْرَهُ ، وَأَصَمُّوْا
أَذَانَهُمْ عَنْ سَمَاعِ أَصْوَاتِ خُصُومِهِ أَيَّامًا كَانَتْ مَنَزِلَةُ أَوْلِيكَ
الْخُصُومِ .

مِنْ ذَلِكَ أَنَّ خَلِيفَةَ الْمُسْلِمِينَ عَبْدَ الْمَلِكِ بْنَ مَرْوَانَ
أَسْنَدَ وَلَايَةَ « مِصْرَ » إِلَى ابْنِهِ عَبْدِ اللَّهِ .

وَكَانَ يَوْمَئِذٍ شَابًّا مُعْتَدًّا^(١) بِحَسْبِهِ ، مُدِلًّا^(٢)
بِمَنَزِلَتِهِ مِنَ الْخَلِيفَةِ .

فَسَاءَهُ أَنْ يَتَخَطَّاهُ مُوسَى بْنُ نُصَيْرٍ ، وَأَنْ يُكَاتِبَ دَارَ
الْخِلَافَةِ مُبَاشَرَةً دُونَ أَنْ تَمُرَّ رَسَائِلُهُ بِهِ ؛ كَمَا كَانَ يَفْعَلُ
وَلَاةُ إِفْرِيقِيَّةَ مِنْ قَبْلُ ...

فَكَتَبَ إِلَيْهِ كِتَابًا جَاءَ فِيهِ :

أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّكَ كُنْتَ مِنْ عَمِّي عَبْدِ الْعَزِيزِ وَبَشِيرِ بْنِ

(١) مُعْتَدًّا بِحِسْبِهِ : مُعْتَدًّا عَلَيْهِ وَجَاعِلُهُ عَدَتَهُ .

(٢) مُدِلًّا : ذُو دَلَالٍ وَزِيَادَةٍ فِي الْقُرْبِ .

مِهَادَيْنِ^(١) تَغْلُو بِهِمَا عَنِ الْحَضِيضِ ، وَتَسْتَذِفِي
بِدَثَارِهِمَا ... حَتَّى عَلَا بَيْنَ النَّاسِ قَدْرُكَ وَغَرَّتْكَ
نَفْسُكَ ...

فَلَا تَحْسَبْنِي كَمَنْ كُنْتَ تَخْلِيهِ^(٢) ...
وَأَيْمُ^(٣) اللَّهِ لَأَضَعَنَّ مِنْكَ مَا رَفَعَا ، وَلَأَقْلَنَّ مَا كَثُرَا .
فَلَمَّا أَخَذَ مُوسَى بْنُ نُصَيْرٍ رِسَالَتَهُ كَتَبَ إِلَيْهِ يَقُولُ :
أَمَّا بَعْدُ ، فَقَدْ قَرَأْتُ رِسَالَتَكَ ، وَوَقَفْتُ عَلَى مَا جَاءَ
فِيهَا مِنْ رُكُونِي^(٤) إِلَى عَمِّكَ وَارْتِفَاعِي بِهِمَا ...
وَلَعَمْرِي إِنِّي كُنْتُ لِيُنْزِلَنَّكَ الْمَنْزِلَةَ الَّتِي أَنْزَلَانِي بِهَا
أَهْلًا ...

وَلَوْ أَنَّكَ خَبَرْتَ مِنْ حَالِي مَا خَبَرَا ؛ لَمَا صَغُرْتَ مِنْ
أَمْرِي عَظِيمًا ، وَلَا جَهَلْتَ مِنْ شَأْنِي مَغْلُومًا .

(١) مِهَادَيْنِ : المهاد في اللغة هو الفراش ، وكأنه يقول له : لقد كان لك سندان
ترتاح إليها .

(٢) تخليه : تغره وتخدعه .

(٣) أَيْمُ اللَّهِ : صيغة للقسام .

(٤) من ركوني : من اعتمادي عليهم .

وَأَمَّا تَهْدِيدُكَ إِيَّايَ بِأَنَّكَ وَاضِعٌ مِنِّي مَا رَفَعَا ؛ فَذَلِكَ
لَيْسَ بِيَدِكَ ، وَلَا هُوَ إِلَيْكَ ...
فَأُبْرِقْ لِغَيْرِي وَأَزْعِدْ .

وَلَمَّا بَلَغَتِ الرِّسَالَةُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَبْدِ الْمَلِكِ اسْتَشْطَا
لَهَا غَضَبًا ، وَتَمَيَّزَ مِنْهَا غَيْظًا .

ثُمَّ بَعَثَ الرِّسَالَةَ إِلَى الْخَلِيفَةِ فِي « دِمَشْقَ » ...
وَمَعَهَا رِسَالَةٌ مِنْهُ يَشْكُو فِيهَا مِنْ تَطَاوُلِ مُوسَى بْنِ نُصَيْرٍ
عَلَيْهِ ، وَاسْتِخْفَافِهِ بِهِ ...

فَلَمَّا بَلَغَتِ الرِّسَالَتَانِ دَارَ الْخِلَافَةِ ؛ قَرَأَهُمَا الْخَلِيفَةُ
الْوَلِيدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ .

ثُمَّ عُلِقَ عَلَيْهِمَا قَائِلًا :

لِلَّهِ دَرُّ مُوسَى بْنِ نُصَيْرٍ مَا أَثْبَتَ جَنَانَهُ وَأَمْضَى
لِسَانَهُ ، وَلَقَدْ كَانَ أَخِي عَبْدُ اللَّهِ غَيْثًا عَنْ أَنْ يَتَعَرَّضَ لَهُ .

* * *

ثُمَّ مَا لَبِثَ الْوَلِيدُ أَنْ عَزَلَ أَخَاهُ عَنْ وَلَايَةِ « مِصْرَ »

لِسُوءِ تَدْبِيرِهِ ، وَأَطْلَقَ يَدَ مُوسَى بْنِ نُصَيْرٍ ، لِيَنْشُرَ الْإِسْلَامَ
فِي رُبُوعِ أَوْرُبَّا ...

بَعْدَ أَنْ بَسَطَ ظِلُّهُ الْوَارِفَ عَلَى الشَّمَالِ الْإِفْرِيقِيِّ ؛
الَّذِي أَصْبَحَ يُدْعَى بِالْجَنَاحِ الْأَيْسَرِ لِلْإِسْلَامِ .

مَضِيقُ جَبَلِ طَارِقٍ

لَمْ يَكُنْ مُوسَى بْنُ نُصَيْرٍ مُغَايِرًا مِنَ الْمُغَايِرِينَ يَفْتَحُ
الْبُلْدَانَ ، لِشَهْوَةِ الْفَتْحِ ، وَجَمْعِ الْمَغَانِمِ ...

وَأِنَّمَا كَانَ مُجَاهِدًا فِي سَبِيلِ إِعْلَاءِ كَلِمَةِ اللَّهِ .

فَكَانَ لَا يَفْتَحُ الْبَلَدَ مِنَ الْبُلْدَانِ ؛ إِلَّا وَيَبُثُّ فِيهِ
الدُّعَاةَ الْهُدَاةَ الَّذِينَ يَدْعُونَ النَّاسَ إِلَى الْإِيمَانِ ،
وَيَعْلُمُونَهُمُ الْقُرْآنَ ...

وَيُؤَدِّبُونَهُمْ بِآدَابِ الْإِسْلَامِ ، حَتَّى أَسْلَمَتْ بِلَادُ
الْمَغْرِبِ عَلَى يَدَيْهِ ...

وَأَصْبَحَتْ قُوَّةٌ مِنْ أَعْظَمِ قُوَى الْخَيْرِ ...

وَسِلَاحًا مِنْ أَمْضَى أَسْلِحَةِ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ .

* * *

وَلَمَّا تَمَّ لِمُوسَى بْنِ نُصَيْرٍ فَتْحُ بِلَادِ الْمَغْرِبِ ، وَرَفَعَ
رَايَاتِ الْإِسْلَامِ فَوْقَ « طَنْجَةَ » ...

وَجَدَ نَفْسُهُ يَقِفُ وَجْهًا لِرُؤُوسِهِ أَمَامَ بِلَادِ
«الْأَنْدَلُسِ»، لَا يَفْصِلُهُ عَنْهَا إِلَّا مَضِيقٌ ضَيِّقٌ.

وَكَانَ يَجْلِسُ عَلَى عَرْشِ «الْأَنْدَلُسِ» مَلِكٌ سَلَبَ
الْعَرْشَ مِنْ وَرَثَتِهِ الشَّرْعِيِّينَ، وَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهِ بِالْغَدْرِ
وَالْقُوَّةِ ...

فَكَرِهَهُ أَهْلُ قَوْمِهِ، وَكَرِهَ أَهْلُ قَوْمِهِ، وَكَانَ اسْمُهُ هَذَا
الْمَلِكِ الْمُعْتَصِبِ «لُذْرِيْقُ» .

* * *

سَارَ «لُذْرِيْقُ» فِي قَوْمِهِ سِيرَةً فَاسِدَةً، وَلَمْ يَرَوْعَ
لِعَمَالِهِ حُرْمَةً ...

فَعَدَرَ بِابْنَةِ «يُولْيَانَ» أَحَدِ كِبَارِ وُلَاتِيهِ، وَكَانَتْ فَتَاةً
رَائِعَةً الْحُسْنِ بَارِعَةً الْجَمَالِ ...

فَأَقْسَمَ «يُولْيَانُ» عَلَى أَنْ يَنْتَقِمَ مِنْ «لُذْرِيْقِ» لِشَرَفِهِ
الْمَغْضُوبِ وَعِزِّهِ الْمَسْلُوبِ شَرًّا انْتِقَامٍ .

كَانَ «يُولْيَانُ» وَالْيَا عَلَى «سَبْتَةَ» وَكَانَتْ «سَبْتَةُ»

إِذْ ذَاكَ نَغَرَ^(١) إِفْرِيقِيَّا تَابِعاً لِمَلِكِ «الْأَنْدَلُسِ» ...
فَاتَّصَلَ «يُولْيَانُ» بِمُوسَى بْنِ نُصَيْرٍ وَأَغْرَاهُ بِفَتْحِ
«الْأَنْدَلُسِ» ...

وَبَصَّرَهُ^(٢) بِمَوَاطِنِ الضَّعْفِ فِيهَا ، وَوَعَدَهُ بِأَنْ يَضَعَ
سَائِرَ طَاقَاتِهِ فِي خِدْمَةِ الْمُسْلِمِينَ ؛ لِيَنْتَقِمَ مِنْ «لُذْرِيْقَ»
سَالِبِ الْمُلْكِ ، وَغَاصِبِ الْعَرْصِ .

* * *

لَمْ يَشَأْ مُوسَى بْنُ نُصَيْرٍ أَنْ تَضِيعَ مِنْ يَدِهِ هَذِهِ
الْفُرْصَةُ ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَشَأْ أَيْضاً أَنْ يُرِكَبَ الْمُسْلِمِينَ مَرَاكِبَ
الْغَرَرِ^(٣) ...

فَرَأَى أَنْ يَخْتَبِرَ صِدْقَ «يُولْيَانِ» ، وَأَنْ يَسِيرَ^(٤) بِلَادَ
«الْأَنْدَلُسِ» بِالسَّرَايَا الْمُسْتَطْلَعَةِ قَبْلَ أَنْ يَدْفَعَ إِلَيْهَا
بِالْجَيْشِ الْغَازِي .

(١) النغر: المنطقة الفاصلة بين حدود بلد وحدود أعدائهم .

(٢) بصره: كشف له .

(٣) مراكب الغرر: السير في طرق غير مأمونة .

(٤) يسير: يختبر ويمتحن .

فَاخْتَارَ مَوْلَى مِنْ مَوَالِيهِ مِنْ «الْبَزْزَرِ» يُدْعَى
«طَرِيفاً» ...

وَكَانَ «طَرِيفٌ» هَذَا مِنْ أَشْجَعِ الرِّجَالِ قَلْباً ،
وَأَشَدَّهُمْ بَأْساً ، وَأَضْبَرَهُمْ عَلَى الْقِتَالِ ، فَوُضِعَ تَحْتَ إِمْرَتِهِ
أَرْبَعِمِائَةِ مُحَارِبٍ وَمِائَةُ فَارِسٍ .

* * *

وَفِي أَوَائِلِ رَمَضَانَ سَنَةِ إِحْدَى وَتِسْعِينَ لِلْهِجْرَةِ عَبَرَ
«طَرِيفٌ» الْمَضِيقَ الْمَعْرُوفَ الْيَوْمَ بِمَضِيقِ جَبَلِ طَارِقٍ ،
وَأَسْتَقَرَّ عَلَى الشَّاطِئِ «الْأَنْدَلُسِيِّ» فِي الْمَكَانِ الَّذِي
سُمِّيَ بَعْدَ ذَلِكَ بِاسْمِ «جَزِيرَةِ طَرِيفِ» تَذْكَاراً لِأَوَّلِ غَازٍ
مُسْلِمٍ نَزَلَ فِي بِلَادِ «الْأَنْدَلُسِ» .

أَغَارَ «طَرِيفٌ» بِرِجَالِهِ عَلَى أَرْضِ «الْأَنْدَلُسِ»
إِغَارَاتٍ جَرِيئَةً مُوَفَّقَةً ، وَبَثَّ^(١) سَرَايَاهُ فِي أَرْجَائِهَا فِي
شَجَاعَةٍ وَإِفْدَامٍ مُذْهِلِينَ ، ثُمَّ عَادَ إِلَى مَوْلَاهُ مُوسَى بْنِ نُصَيْرٍ
يَقُودُ السَّبَايَا الْكَثِيرَةَ ، وَيَجْرُ الْمَغَانِمَ النَّفِيسَةَ الْوَفِيرَةَ ،

(١) بَث سَرَايَاهُ : نَشَرَ جُنُودَهُ .

وَيُحْمِلُ الْمَعْلُومَاتِ الْقِيَمَةَ ، وَيُبَشِّرُ بِإِمْكَانِ الْفَتْحِ ،
وَيُؤَكِّدُ صِدْقَ «يُولِيَان» .

عِنْدَ ذَلِكَ عَزَمَ مُوسَى بْنُ نَصِيرٍ عَلَى الْفَتْحِ ، وَجَعَلَ
يَبْحَثُ عَنِ الْقَائِدِ الْعَظِيمِ الَّذِي يُرَجَّى لِمِثْلِ هَذَا الْأَمْرِ
الْعَظِيمِ ...

فَنَثَرَ كِنَانَهُ رِجَالَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَعَجَمَ^(١) عِيدَانَهَا لِيَرَى
أَيُّهَا أَصْلَبُ عُوداً وَأَمْرٌ مَكْسِراً^(٢) ... فَمَا وَجَدَ إِلَّا فِتْيَ
الْفِتْيَانِ طَارِقَ بْنِ زِيَادٍ ...

* * *

فَقَدْ كَانَ طَارِقُ بْنُ زِيَادٍ مَعْرُوفاً بِالثَّبَاتِ حِينَ تَنْخَلِيعِ
الْقُلُوبِ ...

مَشْهُوراً بِالْإِقْدَامِ حِينَ تُحْجِمُ كِبَارُ النُّفُوسِ ...
مَشْهُوداً لَهُ بِالْإِيْمَانِ حِينَ يُزْلَزِلُ الْخَوْفُ أَفْعَدَةَ
الرِّجَالِ .

(١) عجم عيدانها : اختبارها ، وفي الكلام تشبيه للرجال بالسهام .
(٢) أمر مكسراً : أصعب كسراً .

لَمْ يَكُنْ طَارِقُ بْنُ زِيَادٍ فَتَى مِنْ فُتَيَانِ قُرَيْشٍ ...
وَلَا سَلِيلًا^(١) لِعَظِيمٍ مِنْ عُظَمَاءِ الْعَرَبِ ...
وَلِإِنَّمَا كَانَ امْرَأًا « بَرْبَرِيٌّ » الْعَرَقِ .
غَيْرَ أَنَّ ذَلِكَ لَمْ يَمْنَعْ مُوسَى بْنَ نَصِيرٍ مِنْ اخْتِيَارِهِ
لِلْأَمْرِ الْعَظِيمِ .
فَحَسِبُ طَارِقٍ نَسَبًا أَنَّهُ يَنْتَمِي إِلَى الْإِسْلَامِ ...
وَيَكْفِيهِ حَسَبًا أَنَّهُ يُلَوِّذُ بِالْقُرْآنِ ...
وَأَكْرِمَ بِالْإِسْلَامِ مِنْ نَسَبٍ ، وَأَعْظَمَ بِالْقُرْآنِ مِنْ
حَسَبٍ .

* * *

وَفِي يَوْمٍ مَجِيدٍ مِنْ أَيَّامِ سَنَةِ اثْنَتَيْنِ وَتِسْعِينَ لِلْهِجْرَةِ ،
فَصَلَ^(٢) طَارِقُ بْنُ زِيَادٍ عَنِ الْبَرِّ الْإِفْرِيقِيِّ بِسَبْعَةِ آلَافٍ مِنَ
الْجُنْدِ ، جُلُّهُمْ مِنَ « الْبَزِيرِ » ، تَحْمِلُهُمْ أَرْبَعُ شُفُنٍ كَبِيرَةٍ
أُعِدَّتْ لِذَلِكَ ...

(١) سليلًا: من نسل وذرية أحد العظماء . (٢) فصل: خرج .

فَأَلْقَتِ الشُّفُنُ مَرَّاسِيهَا عِنْدَ الصَّخْرَةِ الْعَتِيدَةِ الْقَائِمَةِ
عَلَى الشَّاطِئِ الْأَوْرِيِّ ، وَالْمَعْرُوفَةِ الْيَوْمَ فِي سَائِرِ لُغَاتِ
الدُّنْيَا بِاسْمِ "GIBRALTAR" « جِيبَرِالتَار » أَوْ جَبَلُ
طَارِقٍ ...

* * *

بَتْ طَارِقُ بْنُ زِيَادٍ عُيُونَهُ فِي كُلِّ مَكَانٍ ، وَاسْتَعَانَ
بِخِزْرَاتِ « يُولِيَّانَ » ...

فَجَاءَتْهُ الْأَنْبَاءُ بِأَنَّ « لُذْرِيْقَ » قَدْ حَشَدَ لَهُ مِنَ الْجُنْدِ
عَشْرَةَ أَمْثَالِ مَا مَعَهُ ...

وَأَعَدَّ لِلِقَائِهِ مِنَ الْعُدَّةِ مَا لَا قِبَلَ لَهُ بِهِ .

فَأَرْسَلَ إِلَى مُوسَى بْنِ نُصَيْرٍ يَسْتَنْجِدُهُ ... فَأَنْجَدَهُ
بِحَمْسَةِ آلَافٍ مِنْ عَسْكَرِهِ ، وَبِذَلِكَ بَلَغَتْ عِدَّةُ الْمُسْلِمِينَ
فِي مَعْرَكَةِ الْفَتْحِ الْأُولَى اثْنِي عَشَرَ أَلْفًا مِنَ الْمُجَاهِدِينَ .
وَكَانَ مِمَّا شَدَّ مِنْ أَزْرِ طَارِقِ بْنِ زِيَادٍ أَنَّهُ حِينَ كَانَ
يَغْبِرُ الْبَحْرَ ، رَأَى النَّبِيَّ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ فِي نَوْمِهِ ، وَقَدْ

حَفَّتْ بِهِ كَوَكَبَةٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ، وَهُمْ مُتَقَلِّدُو
 الشُّيُوفِ ، مُتَنَكِّبُو^(٣) الْقِيسِيِّ ، وَرَسُولُ اللَّهِ يُنَادِيهِ قَائِلًا :
 (تَقَدَّمْ لِشَأْنِكَ يَا طَارِقُ) .

ثُمَّ دَخَلَ الرَّسُولُ ﷺ وَمَعَهُ أَصْحَابُهُ إِلَى بِلَادِ
 « الْأَنْدَلُسِ » ، وَدَخَلَ هُوَ وَجَيْشُهُ وَرَاءَهُمْ ...

عِنْدَ ذَلِكَ هَبَّ طَارِقٌ مِنْ نَوْمِهِ فَرِحًا مُسْتَبْشِرًا بِمَا
 رَأَى وَمَا سَمِعَ ، وَبَشَّرَ أَصْحَابَهُ بِالْفَتْحِ ، وَأَيَّقَنَ أَنَّ هَذَا
 الْحُلَمَ إِنَّمَا هُوَ الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ ، فَقَوِيَتْ نَفْسُهُ ، وَاشْتَدَّ
 فُؤَادُهُ ، وَوُثِقَ مِنْ نَصْرِ اللَّهِ .

* * *

جَمَعَ « لُذْرِيْقُ » لِلِقَاءِ طَارِقِ بْنِ زِيَادٍ جَيْشًا جَرَّارًا
 عِدَّةُ رِجَالِهِ مِائَةُ أَلْفٍ مُقَاتِلٍ ، وَحَشَدَ فِيهِ أُمَرَاءَ « الْقُوطِ »
 وَمُلُوكَهُمْ ، وَفُؤَسَانَهُمْ .

وَنَزَلَ الْجَيْشَانِ عَلَى مَكَائِنِ مُتَقَارِبَيْنِ ، فَأَرَادَ

(٣) متنكبوا القسي : يحملون القسي على أكتافهم .

«لَذَرِيقُ» أَنْ يَسْتَطْلِعَ أَحْوَالَ جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ، وَأَنْ يَقِفَ
عَلَى عَدَدِهِمْ وَعُدَّتِهِمْ...

فَنَدَبَ^(١) لِذَلِكَ رَجُلًا يَثِقُ بِهِ، وَيَعْرِفُ نَجْدَتَهُ
وَحِذْقَهُ^(٢).

مَضَى رَسُولُ «لَذَرِيقِ» إِلَى غَايَتِهِ، فَلَمَّا
اسْتَشْرَفَهُ^(٣) الْمُسْلِمُونَ وَثَبُوا إِلَيْهِ، فَأُطْلِقَ لِفَرَسِهِ
الْعِنَانُ، وَوَلَّى هَارِبًا...

فَتَبِعَهُ الْفُرْسَانُ بِأَسْرَعَ مِنْ لَمَحِ الْبَصَرِ وَأَنْطَلَقُوا
وَرَاءَهُ، أَنْطَلَقَ السَّهْمُ، فَلَمْ يَنْجُ مِنْهُمْ إِلَّا بِأَعْجُوبَةٍ...

* * *

بَلَغَ الرَّسُولُ مُعَسَّكَرَ قَوْمِهِ مَبْهُورَ^(٤) الْأَنْفَاسِ
خَائِرَ^(٥) الْقُوَى، وَلَمَّا سَكَتَ عَنْهُ الْهَلَعُ قَالَ يُخَاطَبُ
«لَذَرِيقُ» :

(١) ندب : أرسل .

(٢) حِذْقُهُ : إتقانه للأمر .

(٣) استشرفه : رآه مقبلاً عليهم .

(٤) مبهور الأنفاس : مقطوع الأنفاس .

(٥) خائر القوى : ضعيف القوة لا يكاد يقف على قدميه .

تُحَذِّدُ عَلَى نَفْسِكَ^(١) أَتَيْهَا الْمَلِكُ ، وَالزَّمِ الْحَذَرَ عَلَى
مُلْكِكَ وَجَيْشِكَ ...

فَقَدْ جَاءَكَ مَنْ لَا يُرِيدُ إِلَّا الْمَوْتَ ، أَوْ إِصَابَةَ
مَا تَحْتَ قَدَمَيْكَ .

* * *

وَفِي صَبِيحَةِ الثَّامِنِ وَالْعِشْرِينَ مِنْ رَمَضَانَ سَنَةِ اثْنَتَيْنِ
وَتِسْعِينَ لِلْهِجْرَةِ ، كَانَ « لُذْرِيْقُ » يَتَّبِعُهُ إِلَى لِقَاءِ طَارِقٍ ،
وَهُوَ فِي عَجَلَتِهِ الْحَزِينَةِ قَدْ نُصِبَ لَهُ فَوْقَهَا سَرِيرٌ مِنْ
الذَّهَبِ ...

وَعَلَى رَأْسِهِ مَظْلَّةٌ مُكَلَّلَةٌ بِالذُّرِّ ، مُرَصَّعَةٌ بِالْيَوَاقِيتِ
وَالزَّبَرْجَدِ^(٢) ، وَقَدْ تَحَلَّى بِأَبْهَى حُلَّةٍ وَتَزَيَّنَ بِأَتَمِّ زِينَةٍ .
وَقَدْ أَحَاطَ حَرَسُهُ بِعَرَبَتَيْهِ إِحَاطَةً السَّوَارِ بِالْمِغْصَمِ ،
وَحَفَّ بِهِ مِائَةُ أَلْفٍ مِنْ جُنُودِهِ .

وَكَانَ فِي الْجِهَةِ الْمُقَابِلَةِ طَارِقُ بْنُ زِيَادٍ يَدُقُّ

(١) تُحَذِّدُ عَلَى نَفْسِكَ : أَي خَذ الحِيطة والحذر .

(٢) الزَّبَرْجَدُ : نَوْعٌ مِنَ الْأَحْجَارِ الْكَرِيمَةِ .

يَقْدَمِيهِ الْأَرْضَ بَارِزاً صَدْرُهُ، مَكْشُوفاً مَنْكِبَاهُ، مُصَلَّتاً
سَيْفُهُ ...

وَاقِفاً عَلَى نَشْرِ^(١) مِنَ الْأَرْضِ يَخْطُبُ جُودَهُ خُطْبَةً
الْجِهَادِ فَيَقُولُ :

« أَيُّهَا النَّاسُ ، أَتَيْنَ الْمَفْرُ ... الْبَحْرُ مِنْ وَرَائِكُمْ
وَالْعَدُوَّ أَمَامَكُمْ ، وَلَيْسَ لَكُمْ وَاللَّهِ إِلَّا الصَّدَقُ وَالصَّبْرُ ...
وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ فِي هَذِهِ الْجَزِيرَةِ أَضْيَعُ مِنَ الْإِيْتَامِ فِي
مَأْدَبَةِ اللَّقَامِ ...

وَقَدْ اسْتَقْبَلَكُمْ عَدُوُّكُمْ بِجَيْشِهِ وَأَسْلِحَتِهِ ،
وَأَقْوَاتِهِ^(٢) مَوْفُورَةً ، وَأَنْتُمْ لَا مَلْجَأَ لَكُمْ إِلَّا سُيُوفُكُمْ ...
وَلَا أَقْوَاتَ لَكُمْ إِلَّا مَا تَسْتَخْلِصُونَهُ^(٣) مِنْ أَيْدِي
عَدُوِّكُمْ ...

وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِنْ صَبَرْتُمْ عَلَى الْأَشَقِّ قَلِيلًا اسْتَمْتَعْتُمْ

(١) نشز من الأرض : مرتفع من الأرض .

(٢) أقواته : أنواع طعامه موفرة .

(٣) ما تستخلصونه : ما تتمكنون من أخذه .

بِالْأَرْفَةِ^(١) الْأَلَدُّ طَوِيلًا ...

وَقَدْ انْتَحَبَكُمْ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ الْوَلِيدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ
مِنَ الْأَبْطَالِ شُجْعَانًا ...

وَرَضِيَكُمْ لِمُلُوكِ هَذِهِ الْجَزِيرَةِ أَصْهَارًا ،
وَأُخْتَانًا^(٢) ...

لِيَكُونَ حَظُّهُ مِنْكُمْ ثَوَابَ اللَّهِ عَلَى إِعْلَاءِ كَلِمَتِهِ
وَإِظْهَارِ دِينِهِ بِهَذِهِ الْجَزِيرَةِ ...

وَاعْلَمُوا أَنِّي أَوَّلُ مُجِيبٍ إِلَى مَا دَعَوْتُكُمْ إِلَيْهِ ...

وَأَنِّي عِنْدَ مُلْتَقَى الْجَمْعَيْنِ حَامِلٌ بِنَفْسِي عَلَى طَاعِيَةِ
الْقَوْمِ « لُذْرِيْقَ » ... فَقَاتِلُهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى ، فَاحْمِلُوا
مَعِيَ ...

فَإِنْ هَلَكَتْ بَعْدَهُ ، فَقَدْ كَفَيْتُكُمْ أَمْرَهُ^(٣) ...

(١) الْأَرْفَةُ الْأَلَدُّ : الأكثر رفاهية والأعظم لذة .

(٢) أُخْتَانًا : أصهاراً تتزوجون بناتهم أو يتزوجون بناتكم .

(٣) كَفَيْتُكُمْ أَمْرَهُ : أكون قد قتلته وأرحتكم منه .

وَأِنْ هَلَكَتْ قَبْلَ وُصُولِي إِلَيْهِ فَأَخْلُفُونِي فِي عَزِيمَتِي
هَذِهِ ، وَاجْمِلُوا بِأَنْفُسِكُمْ عَلَيْهِ فَإِنَّهُمْ بَعْدَهُ يُخَذَّلُونَ^(١) .

وَمَا أَنْ أَتَمَّ طَارِقٌ خُطْبَتَهُ ، حَتَّى كَانَ جَيْشُ
«الإِسْبَانِ» الْكَثِيفُ يَفْتَرِبُ مِنْ سَاحَةِ الْمَعْرَكَةِ فِي بُطْءٍ ،
وَيَتَهَادَى إِلَيْهَا فِي خِيَلَاءٍ ... فَقَدْ كَانَ مِائَةً أَلْفٍ .

وَجَيْشُ الْمُسْلِمِينَ اثْنَا عَشَرَ أَلْفًا .

ثُمَّ التَقَى الْجَمْعَانِ ...

وَدَارَتْ بَيْنَهُمَا رَحَى مَعْرَكَةٍ ضَرُوسٍ دَامَتْ ثَمَانِيَةَ
أَيَّامٍ كُلُّ يَوْمٍ مِنْهَا بِسَنَةٍ مِمَّا نَعُدُّ ...

أَبْدَى فِيهَا الْفَرِيقَانِ مِنْ ضُرُوبِ الْبُطُولَاتِ ،
وَصُنُوفِ التَّضَحِّيَّاتِ ، وَفُتُونِ الْحَرْبِ ، مَا لَا يَزَالُ
يَذْكُرُهُ التَّارِيخُ فِي أَرْوَاعِ صَفَحَاتِهِ .

ثُمَّ انْجَلَتْ الْمَعْرَكَةُ عَنْ نَصْرِ مُؤَزَّرٍ أَعَزَّ اللَّهُ بِهِ
أَوْلِيَاءَهُ ...

(١) يُخَذَّلُونَ : يَهْزَمُونَ وَيَفْرُونَ .

وَهَزِيمَةٌ مُنْكَرَةٌ أَذْلُ بِهَا أَعْدَاءُهُ ...

فَوَلَّى « لُذْرِيْقُ » الْأَذْبَارَ ، وَانْفَسَحَ الطَّرِيقُ أَمَامَ طَارِقِ
وَجُنْدِهِ ...

وَمَنْ اللَّهُ عَلَى جَنَّةِ الدُّنْيَا بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ بِنِعْمَةِ
الْإِسْلَامِ ...

وَرُفِعَتْ عَلَى رُبَاهَا الشُّمُّ رَايَاتُ الْقُرْآنِ .

الفهرس

٧ حِصْنُ بَابِلْيُون
٢٣ بِنَاءُ الْقَيْرَوَان
٣٩ الْمَلِكَةُ الْكَاهِنَةُ
٦٣ بَيْتُ الْحِكْمَةِ
٧٩ مَضِيقُ جَبَلِ طَارِقِ

* * *

كتب للمؤلف

- نحو مذهب إسلامي في الأدب والنقد .
- شعر الطُّرد « إلى نهاية القرن الثالث الهجري » .
- علي بن الجَّهم « حياته وشعره » .
- صور من حياة الصحابة [٦٥ صورة]
« الطبعة المشروعة مزيدة ومنقحة » .
- صور من حياة الصحايات .
- صور من حياة التَّابعين [٣٧ صورة]
« مزيدة ومنقحة » .
- الدِّين القِيَم .
- الصَّيْد عند العرب « أدواته وطرقه - حيوانه الصائِد والمصِيد » .

- البطولة .
- أرض البطولات .
- فن الامتحانات « بين الطالب والمعلم » .
- فن الدراسة .
- العدوان على العربية عدوان على الإسلام .
- حَدَّثَ في رمضان .